محمد زهدي النشاشيبي

رفضتُ اتفاقية باريس الاقتصادية لاثنين وعشرين سبباً فقط!

أسستُ وزارة المالية الفلسطينية وحولتها من مجرد مكاتب محاسبة

إلى مؤسسة عصرية سيادية

كانت فلسطين بالنسبة لميشيل عفلق وصلاح البيطار مؤسّسَي حزب البعث

أهم من أي قضية عربية أو سورية

حاربت في جيش الإنقاذ، وزاملت عبد الحميد شومان في تأسيس البنك العربي

وعدت مع أبو عمار لاستنشق نسيم القدس.. مدينة الروح والعقل والقلب.

في موكب الذكريات والدموع

بروح الصحافي المناضل القديم، الذي يعرف ما للكلمة من أهمية، وبروح المناضل المفكر الذي يقدس رسالة الصحافة، رحب بنا الأستاذ محمد زهدي النشاشيبي، ووافق على أن نجدف به بعيدا، في قارب الذكريات، وسط بحر متلاطم من الأحداث والخطوب، لعل من أكثرها شجنا وقسوة وألما، فراقه لرفيقة عمره أميمة منذ أيام قليلة.

كان الجرح ساخنا، والقلب جريحا، والوجد يخفق بذكريات اللوعة والحرقة، ونار الألم تعصف بكل كيان الرجل الكبير، الذي علا فوق مشاعر الألم والدموع والأحزان، كفكف عبراته، ومسح أطياف الحزن، ونحى شريطا كاملا من حياة امتدت ستين عاما مع رفيقة دربه، ابنة اللاذقية التي تنتمي لعائلة من أعرق العائلات السورية، السيدة الرائعة المثقفة المناضلة التي تعشق الحياة وتخوض غمارها بروح متفائلة وطاقة جبارة تستمدها من الرائد المناضل محمد زهدي النشاشيبي، وبذلك كانت عونا له في مسيرته وشريكا فاعلا في كل انجازاته وانتصاراته بل وانكساراته.

وللحقيقة فإن الشباب السوري، والساسة السوريين، وجيلا كاملا من أبناء الشام كانوا دائما في الصف الأول المناضل من أجل قضية فلسطين، وكانت أميمة، سورية المولد والنشأة ولكنها مقدسية الهوى والانتماء.

وكان يسعدني دائما أن أتردد على بيتهم في الشام وغزة وعمان الذي يعد أنموذجا للبيت الشامي العريق بأزهاره وأشجاره، ومياهه وما يحيط به من شذى الورد وعبق الأزهار والياسمين وخرير المياه وكل مظاهر الجمال الطبيعي الذي يميز البيت السوري.

أوراق مناضل حقيقي

إنه فارس النضال والكلمة، تدفق في عذوبة وسلاسة يروي لنا تفاصيل دقيقة من حياته طالبا، ودارسا واقتصاديا ومحاربا، وكفاءة نضالية في منظمة التحرير الفلسطينية وجنديا محاربا في جيش الإنقاذ ورائدا ومفكرا متميزا في مجالات الاقتصاد الفلسطيني.

التفوق بين العلم والوطنية

كان محمد زهدي محمد النشاشيبي مناضلا قديما ومحاربا فذا من جيل الرواد، أولئك الذين تخرجوا من الجامعات فخرجوا بالشهادات العلمية في أياديهم.. وفي قلوبهم نبض النضال والثورة لتخليص وطنهم من رجس الاحتلال والاقتصاد.

إن مسيرة هذا المناضل تؤكد من خلال دراسة متأنية لحياته أنه لا فائدة من جامعي متفوق، أو عالم مبدع أو لغوي جهبذ أو أديب نابغة ما لم يكرس حياته وعلمه ورؤاه وبصره وبصيرته من أجل قضية هامة أو رسالة سامية.. وأي رسالة أنبل من الدفاع عن القدس.. وأي قضية أهم من تحرير تراب فلسطين.

وعندما يعود الأستاذ زهدي بذاكرته إلى عهد الدراسة سواء في الجامعة أو في المراحل الثانوية يستذكر عشرات بل مئات الأجيال ممن سبقوه أو زاملوه، أو جاءوا من بعده، ومضى هؤلاء في ذاكرة الزمن كأن لم يكونوا، قلة نادرة مختارة أوتيت تلك الشعلة الفطرية المقدسة الخالدة التي تؤمن أن حياة بلا رسالة وبلا هدف حياة ضائعة.

بين دمشق الفيحاء .. وقاهرة عبد الناصر

ينفعل هذا الشيخ الجليل.. ويعلو صوته واضحا صريحا قوّيا.. وهو يؤكد على مخارج حروفه وكلماته.. كانت سورية دائما.. ولعلها لا تزال رائدة النضال العربي.. قلب العروبة النابض على امتداد العصر الحاضر.. ما عدا الفترة الناصرية في مصر.

في أحضان دمشق وفي ساحاتها ودروبها.. وبين أفئدة وعقول وانتماءات أبنائها.. كان الجرح الفلسطيني في الأعماق، وكان الهمُّ الوطني ينبض في قلب دمشق بالأمل والألم والتضحية والفداء..

في دمشق.. التقيت قطبيّ حزب البعث العربي ميشيل عفلق، وصلاح البيطار.. وكانت صحبة نضال وفكر وزمالة وأخوة.. ومع أني لم أكن عضوا في حزب البعث إلا أنني حررت جريدة الحزب لفترة من الفترات.

وأني أشهد بصدق.. كدارس ومتابع وراصد لحركة النضال الثوري الفلسطيني أنَّ سورية كانت دائما قلب العروبة النابض باحتضانها كل ما هو مقاومة ونضال وجهاد وفي سبيل تحرير فلسطين.. واني أشهد بان هذين الزعيمين من أشرف وأنبل وأخلص القادة على مرّ سنوات المد الثوري من فجر الخمسينيات حتى اليوم.

وإذا كانت القاهرة في عهد عبد الناصر قلب العروبة النابض، فإن دمشق الفيحاء كانت في عهد ميشيل وصلاح قلب العروبة النابض أبدا.

كيف أصافح من سلبني القدس؟

في إحدى اجتماعات الدول المانحة في نيويورك، وكانت برعاية البنك الدولي.. تقدم نائب رئيس البنك الدولي نحوي.. بصحبة المندوب الإسرائيلي.. وقال لي نائب مدير البنك.:

- دعني أقدمك للمندوب الإسرائيلي.. مُد يدك لتصافحه.

قلت له:

- آسف.

ذهل الرجل، وخيل إليه أني اقصد إهانته وإحراجه، ولكني التفت إليه في هدوء وقلت له:

- من أي بلد أنت؟

قال:

- من أحد أقطار أوروبا الشرقية.

قلت له:

- وأين تقيم؟

قال:

- في القدس..

قلت له:

- أنت من قارة أخرى بعيدة غريبة، ومن حقك أن تقيم في القدس.. أما أنا حيث ولدت وولد آبائي وأجدادي وأبنائي.. فممنوع من دخول القدس.. كيف تريد أن أصافح من حرمني هذا الحق واغتصب أرضي ووطني.. وشردني.. بعيدا عن القدس؟

أصالة ذلك الجيل من أجدادنا

رغم المحنة التي يمر بها هذا المناضل الكبير.. ورغم أن دموعه لم تجف بعد على فقدان رفيقة دربه منذ أيام قليلة.. رغم ذلك كله.. ورغم إطلاله على مشارف السابعة والثمانين، فإن في بريق عينيه ونظرات وجهه ورنة صوته عذوبة وقوة.. ورغبة صادقة في أن يخترق حجب السنين والأحداث.. ليقدم ومضات رائعة من تاريخ الثورة الفلسطينية تشع بالمبدأ والصدق والأصالة.. ولعلي لا أكون مبالغة إذا قلت إن أجيال الرواد من آبائنا وأجدادنا.. يتألقون مع ذكرى الأحداث ويزدهرون بشذا البطولات والمواقف ويستعيدون لحظات الألم ومشاق المشوار ووعورة الدرب في تفاؤل وصبر وحكمة وضمير مستريح.

مقاتلان في جيش الإنقاذ

عندما اندلعت نكبة عام 1948 كان محمد زهدي النشاشيبي في ريعان شبابه، شابا مقدسيا فتيّ قويا، متسلحا بالعلم والثقافة، منتميا إلى أعرق أسرة فلسطينية مقدسية لها وزنها.. وأهميتها.. تحمل راية القيادة

obeikandl.com

بالتبادل مع أسر مقدسية أخرى وخاصة عائلة الحسيني.. ومن هنا التحق بجيش الإنقاذ الذي شكلته الجامعة العربية من عدة جيوش عربية.. وكان النشاشيبي يعمل تحت قيادة القائد العربي المعروف فوزي القاوقجي.. الذي كان قائدا عاما.. وطه الهاشمي كقائد أعلى.. واشترك النشاشيبي الشاب في قيادة جبع، حيث القيادة الوسطى، ومن ثم تقدموا إلى رام الله حيث قرر القاوقجي دخول القدس. وكانت الاستعدادات تجري على قدم وساق. ولكن القيادة تلقت أوامر من الملك عبد الله باعتباره القائد الأعلى بالانسحاب وكان ذلك ما بين عامي 1948 - 1949.

يقول أبو زهدي في مرارة: وقد طافت على وجهه سحابة من ألم وندم وحسرة.. انسحبتُ إلى سورية.. ولكننا كسرنا شروط الهدنة وحاولنا الدخول من الشمال من الناصرة.. وعسكرنا في الجليل الأعلى. ولم نستطع أن نفعل الكثير.. لقد شعرت يومها بخيبة أمل شديدة لأن الجيوش العربية التي دخلت لتمارس الإنقاذ.. عجزت حتى عن إنقاذ نفسها، ولم تحقق أي نصر.. على أن جيش الإنقاذ الذي كنت انتمي إليه كان آخر قوة انسحبت من الجليل الأعلى.

أول وزير مالية لفلسطين

محمد زهدي النشاشيبي من الشخصيات الفلسطينية المناضلة المعروفة.. لها تاريخها وحضورها واهتماماتها.. وهو دارس جامعي أكاديمي.. يجمع في دراسته بين ماجستير العلوم في الفيزياء والكيمياء من جهة.. ودراسات في الاقتصاد.

هذه العقلية العلمية بهذا الحضور المتميز.. كانت طاقة وطنية فاعلة.. وخاصة أن قدراتها الإدارية والاقتصادية تأصلت وتجذرت من خلال عمله في البنك العربي.. أكبر مؤسسة اقتصادية في العالم العربي. فقد كان عبد الحميد شومان يثق في زهدي النشاشيبي، ويعرف طاقاته وقدراته فجعله قريبا منه.. وأسند إليه تأسيس فرع البنك العربي في حماة، ثم عينه مديرا للبنك العربي في دمشق.. وأخيرا جعله مسؤولا عن إدارة جميع فروع البنك العربي في سورية.

هذه القدرات.. في ذلك الزمن المبكر.. كانت موضع تقدير عبد الحميد شومان الأب، وعبد المجيد شومان الابن.. ومن ثم قدما عرضا لزهدي ليكون مديرا لفروع البنك العربي في منطقة الخليج.

يقول أبو زهدي: قلت لعبد الحميد شومان: لو أن عرضك هذا جاء قبل شهرين لقبلته.. لكنه جاء متأخرا.. فقد تم انتخابي عضوا في اللجنة التنفيذية، وأمينا للسر.. وعليه، فقد استقلت من البنك العربي لأتفرغ لمهامي السياسية.

وأنا هنا أروي الأحداث بموضوعية ومنهجية، فلا داعي للمزاودة على أني أؤمن أن أي فلسطيني ينجح في أي مجال.. على الصعيد العربي والعالمي.. يحقق انجازا لوطنه، ويرفع من شأن شعبه ويدعم هويته وكيانه.. ولكن موقعي في منظمة التحرير.. كان قدري واختياري وهو فوق كل اعتبار آخر.

ذكريات مع الرئيس الراحل

كان محمد زهدي النشاشيبي رجلا أكاديميا.. يحمل درجة الماجستير.. ودارسا للاقتصاد.. ولكن ذلك لم يجعله يغرد خارج السرب الوطني، طالبا المال والثراء، ساعيا إلى المركز والنفوذ أو السلطة.. محتميا بجاه

الأسرة.. والفئوية والعائلية.. كان إحساسه الأول بان فلسطين يجب أن تتحرر.. وأن قرار "فتح".. بالكفاح المسلح يجب أن يتحول إلى سلوك وعمل ولذلك.. فان زهدي ساهم في تجنيد عدد من الشباب الثائر وأرسلهم للتدرب على السلاح.. وكانوا من أوائل من لبى نداء القيادة في الأعمال العسكرية ما بين عامي 1965 حيث انطلقت شرارة الثورة الأولى، وعام 1967 عندما حلت هزيمة حزيران وتغيرت خارطة المنطقة بأسرها.

في حيّ باب الساهرة

ولد محمد زهدي النشاشيبي في القدس عام 1925 في حي باب الساهرة لأب كان يعمل رئيسا لميناء يافا في العهد العثماني.

ولما جاء الانتداب البريطاني وبسط هيمنته على فلسطين، رفض والده أن يعمل مع الانجليز.. لأن ولاءه وحبه كان للدولة العثمانية.

نشأ محمد زهدي في أسرة عريقة موسرة، وكان له أخوان هما طاهر ومدحت وأختان.

وما أن بلغ الخامسة من عمره حتى ألحقه أبوه بالمدرسة السويدية في القدس.. ومن ثم انتقل إلى المدرسة الرشيدية الشهيرة الواقعة في باب الساهرة، والقائمة حتى اليوم. وأمضى في الرشيدية فترة التعليم الثانوي.. ومن ثم التحق بجامعة القدس، وكان والده يخطط لإرساله لإكمال تعليمه في الجامعة الأمريكية في بيروت ولكن ظروف الحرب.. وارتفاع التكاليف.. جعلته يدرس في القدس.. حيث أمضى خمس سنوات حصل بعدها على الماجستير في العلوم/ قسم الفيزياء والكيمياء. بعد تخرجي، تابعت دراستي في الاقتصاد كطالب خارجي في كلية رسكن كولج.. ومن ثم أمضيت سنتين في الجامعة الأمريكية ببيروت للتخصص في الاقتصاد.

مهام ومسؤوليات جسيمة

وليس صحيحا أن محمد زهدي النشاشيبي كان عضوا في حزب البعث السوري، فهو ينفي ما نشر بهذا الخصوص، ويقول إن صداقة متينة ربطت بينه وبين صلاح البيطار وميشيل عفلق، وإن ما كان يجمع بينهما هو النضال المشترك من أجل قضية فلسطين، وقد ترأس أبو زهدي القسم الاقتصادي في منظمة التحرير الفلسطينية حيث كان عضوا في اللجنة التنفيذية منذ عام 1960، كما كان عضوا في المجلس المركزي.

وقد تولى رئاسة الصندوق القومي الفلسطيني في عمان وتونس، كما كان عضو المجلس الأعلى للسلطة الفلسطينية لمخيمات اللاجئين عاد إلى فلسطين بعد توقيع اتفاقية أوسلو في حزيران يونيو 1994 عن طريق أريحا كأول عضو لجنة تنفيذية يدخل فلسطين، عُين وزيرا للمالية في السلطة الوطنية وعمل في هذا المنصب عام 1994 حتى 2003. وقد تولى رئاسة مجلس أمناء جامعة القدس منذ عام 2004 حتى عام 2006.

في معترك الحياة العملية

ويستذكر المناضل الكبير أن أول عمل قام به بعد أن تخرج من الجامعة كان "رئيسا لقسم الامتحانات الخارجية في دائرة معارف فلسطين حوالي عام 1949.. ومن ثم قام بالالتحاق بجيش الإنقاذ وحارب في فلسطين كضابط تحت قيادة فوزي القاوقجي.

عاد بعد ذلك إلى سورية.. واستقر في دمشق وعمل في الصحافة ونشأت في تلك الفترة علاقة مع القائدين ميشيل عفلق وصلاح البيطار.

يقول أبو زهدي:

"كانت العلاقة مع هذين الرائدين اللذين أسسا حزب البعث علاقة نضالية ولم تكن علاقة حزبية.. وعملت لفترة قصيرة في تحرير صحيفة حزب البعث.. وأشهد أنهما أهم قائدين عظيمين لإيمانهما بالقضية الفلسطينية.. ذلك الإيمان الذي كان يفوق أي إيمان آخر.. كانا على إيمان تام بان القضية الفلسطينية قضية مقدسة.

وبعد ذلك عملت في البنك العربي حتى عام 1967 حيث تم اختياري لأكون عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني منذ العام 1968.. ومن ثم تمَّ انتخابي كعضو في اللجنة التنفيذية، ومن ثم أمينا للسر، فاستقلت من ا لبنك العربي لأتفرغ للعمل في المنظمة كرئيس للدائرة الاقتصادية لمنظمة التحرير، وفي تلك الفترة أسست المكتب المركزي للإحصاء الفلسطيني ومقره في دمشق.

ذكريات النضال

ومن ملف ذكريات الشيخ الجليل نتوقف معه عند تأسيس "قيادة النضال الفلسطيني في سورية".. فقد تم اختياره ليكون أحد أعضاء هذا التنظيم المبكر للنضال الفلسطيني، وكان هذا التنظيم بقيادة أبو عمار.

نظرات في الاقتصاد القومي

يقول أبو زهدي:

تركت وزارة المالية سنة 2003، وكان حجم الديون لا يزيد على "5" مليون دولار، ولا أدري.. كم يبلغ حجم الديون اليوم.. ولكنه بالتأكيد تخطى المليارات.

ولست بصدد توجيه الاتهامات.. أو توزيع الأدوار ولكني أؤكد أن أي دولة.. لا يتم وجودها.. ولا يعترف بكيانها إلا إذا كانت تقوم على أركان اقتصادية ومالية سليمة وقوية.

وما دامت الدولة تعتمد على الآخرين.. فإن هؤلاء الآخرين سيظلون أصحاب القرار الحقيقيين.. ولا تسألني كيف يمكن لفلسطين أن تستقل اقتصاديا؟

حكاية وأنموذج وقدوة

أذكر أن الرئيس عرفات عندما تسلم القيادة من الرئيس أحمد الشقيري.. وجد أنه قد خصص لمكتب الرئيس ست سيارات خاصة.. فأمر أبو عمار بأن يلغى هذا الوضع واكتفى بسيارة "جيب".

هذا الأنموذج من السلوك.. موجود كثيرا في ملفات القادة المؤسسين.. ولكننا اليوم نعاني من ترهل خطير في المناصب والدرجات.. والرواتب والامتيازات دون وجه حق.. وهو ما يربك ميزانيتنا.. ويزرع الحقد والنقد والكراهية في صفوف شعبنا.

ومثال آخر .. وأنموذج آخر

عندما أمم عبد الناصر الصحافة المصرية. وأخذ أخبار اليوم من علي أمين ومصطفى أمين.. استدعاهما وقال لمصطفى أمين:

- كم تنفق في الشهر الواحد على نفسك وعلى أسرتك؟

قال مصطفى أمين.. وكان ذلك في سنوات الستينيات:

- ربما مئة أو مئتين جنيه في الشهر.

فقال عبد الناصر:

- لماذا إذن تستولي أنت وعلي أمين على مئات الألوف من الجنيهات؟

وواصل عبد الناصر:

- إن أسرة مصرية متوسطة تستطيع أن تعيش في يسر وسهولة وسعادة.. في حدود أربعين جنيها في الشهر.. وهذا كثير.. ولا يتوفر إلا لفئة بسيطة من أبناء مصر الكادحين.. ولكني سأصرف لكَ.. أنت خمسمائة جنيه، وعلي مثلها.. وعليك أن تعمل بجد وإخلاص وكفاءة.

* * *

لو طبقنا هذا المبدأ.. وأعطينا كل إنسان ما يستحقه وما يكفيه كما فعل عبد الناصر.. لتغيرت أحوالنا.. لو أن كلّ منا أخذ ما يكفيه فقط.. لتغير وجه البسيطة.

* * *

واسمحوا لي الآن.. أن أنقل إليكم ما شاهده صديق أثق في روايته.

قال الصديق الصحافي:

كنت في زيارة عمل لمكتب الأستاذ محمد زهدي النشاشيبي. عندما جاءت مساعدة له.. وقدمت له حوالي ستة أقلام من طراز "Pilot".. مجموعة أقلام أخرى.. ووضعت عدة أقلام في جيبه وهي تؤكد له أن هذه الأقلام جيدة وثمينة. ولكنه نزع هذه الأقلام من جيبه.. وقال لها.. يكفي قلم واحد. ولكن الفتاة حشرت الأقلام في جيبه.. فأخرجها وقال لها بروح أبوية طيبة.. فقد كان يعرف مدى حبها وإخلاصها له: يكفي قلم واحد.

* * *

هذه الحادثة العارضة البسيطة، تدل على معدن الرجل.. لأن النفوس وحقائق الرجال تعرف من صغائر الأمور.. وقصة عمر بن الخطاب الذي كان يستضيء بسراج وهو يبحث أمور الدولة.. فلما فرغت.. أطفأ السراج.. وقال: "لا أخوض أمور أسرتي على سراج من مال المسلمين". بمثل هذه الروح يجب أن نواجه العدو.. الذي يحاصرنا في البر والبحر والجو.

عبور الحواجز وتخطي الحصار

ويقول أبو زهدي: يجب فك الحصار الإسرائيلي، ويجب وقف التدخل والهجمة الإسرائيلية الضاربة على مرافقنا الاقتصادية، ولا بد من استعادة القرار الفلسطيني وتخطي كل العقبات.. يجب أن يكون ميناء غزة حرا.. وأن يعمل بكامل طاقته.. ضمن معطيات وحماية ورعاية دولية من الاتحاد الأوروبي.

ويجب أن يفتح معبر رفح.. وأن تكون الحركة التجارية بيننا وبين مصر طبيعية وسهلة لمصلحة الشعبين، ويجب أن يناضل الشعب الفلسطيني بكل طاقاته، من أجل إقرارها. وهي مسائل بديهة وحقوق لا خلاف عليها.. لو أننا آمنا بذلك وعملنا من أجل ذلك.

هذه آراء خبير في الاقتصاد عرك الحياة.. وفهمها.. وهو بتواضع يقول: ليس مهما أن نعي ونفهم ذلك.. المهم أن نعمل به.

كسر الحصار وتخطي السلبيات

ويرى الأستاذ أبو زهدي أن على كل مسؤول سواء أكان وزيرا أو خفيرا أن يعي أن شغلنا الشاغل هو كيف نحمي اقتصادنا.. وكيف نتصدى لكل مؤامرات الاحتواء والحصار والقهر.

إن معركتنا الحقيقية.. يجب أن توجه إلى فك الحصار المضروب علينا برا وبحرا وجوا، يجب أن نكرس كل طاقاتنا في هذا الاتجاه.. ولن يتم ذلك ما دمنا منقسمين على أنفسنا.. ما دمنا نتردى في الفساد.. ونهادن كل مختلس ونسكت عن كل مخطئ أو متلاعب أو مجرم.

قوانين الدولة المالية يجب أن تكون منصفة.. وعادلة.. وقائمة على الشفافية، والوزارات والألقاب والمنح والامتيازات يجب أن يعاد النظر فيها.. والمسؤولون يجب أن يكونوا قدوة.. وأن يبدؤوا بأنفسهم وفيمن حولهم.

وفي هذه المناسبة.. أستذكر أن أبو زهدي كان عضوا في مجلس الوحدة الاقتصادية وكان يحضر اجتماعات البنك الدولي وكان عضوا في المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي. كما كان يمثل فلسطين في صندوق النقد العربي. إنه إذن من أهل الرأي.. والعلم.. والتجربة.. وجاء في محكم آيات القرآن الكريم: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.. صدق الله العظيم.

ياسر عرفات صديق ورفيق درب

كتب زهدي النشاشيبي في الذكرى السنوية الأولى لرحيل صديقه ورفيق عمره ياسر عرفات مقالا جاء فيه:

"عرفات الشهيد الذي نحيي اليوم ذكراه قضى مغدورا، ولا نعرف حتى الآن كيف دس له السم، وبيد من وبواسطة من وبدافع ممن!

لقد عرفت عرفات ببعديه الإنساني والنضالي، القيادي والريادي وهو أنموذج رائع للصمود الأسطوري في مواجهة الحصار الإسرائيلي وقد عانى في بعض الأحيان من تجاهل بعض القادة الأشقاء له في عزلته.

عرفات عانى كثيرا من الحصار المدمر على صحته، ولكن ذلك لم ينل من عزيمته وصموده وشموخه، وإصراره على مواجهة التحديات رغم قسوة الظروف التي أحاطت به.

عرفات القائد الشهيد عاش القضية الفلسطينية حتى آخر لحظة من حياته، وقد وهبها كل ما يملك من عقل وحكمة وحصانة وبعد نظر ومواهب قيادية قل مثيلها.

لقد كان عرفات أمة في رجل، وقد بلغ الذروة في الشهرة وتألق في سماء المنطقة زعيما شعبيا فذا ورغم كل ذلك ظل إنسانا متواضعا يحب الناس، ويهوى خدمتهم، ويعشق الأطفال ويحنو عليهم، يحب الفقراء ويرعاهم".

ذلك ما كتبه زهدي النشاشيبي في صديقه ورفيق عمره ياسر عرفات ما يؤكد أن الرجلين كان لهما نفس الاهتمامات، ونفس الرؤى، وخاصة في حب القدس الذي شهدت طفولة وصبا كليهما.

وبعد، سيظل اسم زهدي النشاشيبي خالدا في التاريخ ما أشرقت شمس على روابي القدس وما شهدت فلسطين من معارك ونضالات وبطولات على مر العصور.

(2012/9/2)

obeikandl.com

obeikandl.com

الدكتور جابي برامكي

الحياة مواقف.. والإنسان قضية.. وجامعة بيرزيت هي قضية حياة

حصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء

ومضى بالجامعة على حد السيف إلى آفاق الوطنية

عاش حياته في أزمات متوالية واكتوى بنارين

ولكن حكمته رست بالجامعة على شواطئ الغد

ألف كتاباً عنوانه المقاومة السلمية- بناء جامعة فلسطينية تحت الاحتلال

كتب مقدمته كارتر وهي تجربة رائد وثائر وعالم مناضل

عاش الدكتور برامكي حياة حافلة، حياه المناضلين، والأولياء الصالحين الأوائل، وهي التضحية والعطاء وهي أصحاب العقيدة والقلم.

فتح عينيه على النور في القدس فرأى الاستعمار البريطاني جاثما فوق صدر الشرق، وأهل فلسطين، تحت سيطرة الدولة الكبرى العظمى بريطانيا من كل جانب، وكبر الطفل وابتدأ يعي من الكبار قضايا الأمة، وما كان يقدمه أجداده من اهتمام بقضايا الوطن، وكان التقديم من أموالهم وفكرهم وأقلامهم والتمسك بعروبتهم وقوميتهم وبوحدتهم العربية.

وكان هذا الجيل من والد الدكتور برامكي ووالدته ابنة وديع خوري أحد الوجهاء القوميين الوطنيين المناضلين المخلصين، وهو ابن خالة الدكتور موسى ناصر من يافا أي أن والدة الدكتور حنا ناصر هي كذلك ابنة وديع خوري، كما أن الدكتور زاهي خوري رجل الأعمال الفلسطيني الشهير هو ابن وديع خوري، ولا ريب ولا عجب لماذا هذه الروح النضالية والوطنية كان زوجي ابن يافا يقول لي الأستاذ وديع خوري: كان من أوائل رجال الأعمال من يافا الذين حملوا الشعلة ضد الاستعمار البريطاني، وضد الحركة الصهيونية وكان من الأوائل الذين ضحوا بالمال تبرعا للمؤسسات الإسلامية والمسيحية في يافا .

انطلق الدكتور جابي بمبادئ والده ووالدته في النضال الذي كان لا يكل ولا يمل، وكان فعلا الجندي المغامر الذي لا يعبأ بالتهديد، ولا بالتشريد ويخوض من معركة إلى أخرى. الدكتور جابي برامكي كان حلمه أن يكون وطنه حرا طليقا مستقلا من أغلال الاحتلال، رأيته وهو مستهلا المنصة في تخريج أفواج جامعة بيرزيت، وسمعت كلماته المؤثرة الحكيمة، وكان يشيد بالعلم، ولقد خلد لنا في الصدور كلماته الخالدة التي

لا زلت أذكرها كلازمة للمواطن الفلسطيني (العلم نور). كان ينشد نشيد بيرزيت أثناء أفواج التخريج مع الطلاب والأهالي الفرحين. النشيد الذي كتبه الشاعر كمال ناصر الذي استشهد في بيروت هو ورفاقه كمال عدوان وأبو يوسف النجار على أيدي أيهود باراك، ووضعت موسيقاه المبدعة الأستاذة الفنانة العالمة في الموسيقى الكلاسيكية التي تعلمت في أهم معاهد في فرنسا المؤلفة ريما ناصر ابنة الدكتور موسى ناصر.

كانت الزغاريد تصعد من الحناجر إلى السماء شكرا وتسبيحا من الأهالي الذين قدموا كل التضحيات لتعليم أبنائهم من كل الضفة الغربية، وكان كل هذا النهوض العلمي تكملة للمسيرة التي ابتدأها المؤسس الدكتور موسى ناصر، والتي أكمله ابنه الدكتور حنا ناصر الفيزيائي العبقري، الذي بإبعاده في ليلة ظلماء من أرض الوطن اعتقد الإسرائيليون أن الجامعة ستغلق وتنتهي، خصوصا أنهم أرادوا كل هذه السنين أن يغلقوا الجامعة التي كانوا يسمونها وكرا لمنظمة التحرير وللإرهابيين .

لا جدال في أن إرادة الدكتور براميكي كانت أقوى من الدبابات التي كانت تتصدى للمتظاهرين. رأيته وكنت خائفة عليه وعلى رفاقه من الطلاب والأساتذة وهم يتظاهرون يدا بيد ويتحدون الجيش والدبابات يدا بيد مع ألبرت اغازريان، وحنان عشراوي، ومروان البرغوثي، ومفيد عبد ربه، وحسين الشيخ، وسمير صبيحات وغيرهم من المناضلين.

وكانت مكبرات الصوت تدوي في كل سماء بيرزيت، كان الحاكم العسكري العراقي موريس باركوخبا يطلب من الدكتور براميكي أن يكفوا عن الإضراب وإلا الدبابات ستسحق سحقا المتظاهرين، وكانت القذائف والرصاص تنهار على المتظاهرين، وسقط الجرحى، وسقط القتلى، ودخل الجيش عشرات المرات إلى حرم الجامعة وتصدى لهم الدكتور براميكي.

ولكن ابنته أصيبت من قبل قناص في الجيش الإسرائيلي وهي ذاهبة إلى المدرسة إصابة بليغة، وبينما كنا في مستشفى المقاصد نهرع لانتظار إجراء العملية لهانيا الصغيرة وبناتي وأصدقاء هانيا ورفيقاتها يبكون خارج غرفة العمليات، وكانوا قلقين لأن الأطباء كانوا قلقين أن تفقد هانيا رجلها، العملية كانت بمنتهى الخطورة، وكان الدكتور جابي والسيدة هيفاء متماسكين إذ كادت هانيا الصغيرة أن تفقد قدمها والحمد لله، أن الله أنقذ هانيا الصغيرة، لقد كان الشك أن القناص الذي أصاب هانيا من على أعلى عمارة وهي عمارة البنك العربي ومن السطح العالي قصد هانيا لكي يعطي درسا للدكتور جابي الذي لم يخنع ولم يستسلم لإرادة الحاكم العسكري الذي أراد فرض القانون وإرادته على الجامعة.

* * *

القضية الفلسطينية جرح نازف في ضمير العالم المتحضر.. صفحات مثقلة بالدم والإثم والعدوان.. عار يلطخ جبين الإنسانية.. وشاهد حيّ على أن حضارة الغرب، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، وأوائل إطلالة القرن الحالي.. حضارة مثقلة بالآثام والتحيز والنفاق السياسي والفكري والعسكري.

فلسطين.. الوجع العربي الذي لا يكف عن إطلاق زفرات الألم والاحتجاج والإدانة لكل هذه المظاهر المخادعة للديمقراطية والعدالة والمساواة.

ولذلك فإن عصرا قاتما بذاته.. نشأ وترعرع مفكروه وأدباؤه وساسته وفنانوه.. على النضال من أجل الانتصار للشعب الفلسطيني الذي تغتصب أرضه، ويشرد أبناؤه.. وتفتح المعتقلات والسجون لأحراره.. وترتكب ضد أبنائه وأطفاله ونسائه في كل يوم وعبر كل نشرة أخبار ألوانا من البربرية والإثم والعدوان.

ولكل قضية عادلة.. جنود وفرسان وأبطال.. ومفكرون وقادة رأي.. وأدباء وشعراء وفنانون وأصحاب مواقف ومقاتلون في ساحات الحرية والعدالة الإنسانية.

من هؤلاء الفرسان الذين وهبوا أنفسهم للنضال من أجل فلسطين وقضيتها.. الدكتور جابي برامكي الذي حارب قضية حياته في معترك التعليم الجامعي وبالذات في جامعة بيرزيت.

الجامعة خندق نضال أمامي

وعندما نتصفح تاريخ الحركات الثورية.. ونتأمل مسيرة الدكتور برامكي.. تأخذنا أمواج التاريخ إلى حيث الريادة والقوة.. إلى القاهرة.. فالحركة النضالية الثورية في مصر.. كانت انطلاقتها الأولى من الجامعة.. ويشهد تاريخ لطفي السيد والدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين.. بل وعالم الفيزياء الفذ أحمد زويل.. أن الجامعة منارة فكر وحضارة ونضال.. وأنها تشكل قيادة شعب يتطلع إلى الحرية والاستقلال فهي خط أمامي نضالي.. لا يقل خطورة وأهمية عن جبهات القتال، حيث يضحي أبناء الوطن المستنيرون بأرواحهم في سبيل تحرير وطنهم. وكل من عرفوا الدكتور جابي برامكي.. لمسوا فيه تلك الشعلة الفطرية الرائعة التي تمتلئ بالحماسة والإصرار والمثابرة.. على أن تكون جامعة بيرزيت ليست مجرد معهد للعلم والدراسة وتخريج أفواج الأكاديميين.. وإنما ساحة نضال وثورة.. ومنطلقا حضاريا لنشر الثقافة والهوية الفلسطينية وتعميق جذورها لتضرب في أعماق التربة الفلسطينية.

إن أعظم وأروع ما في ثورة الشعب الفلسطيني، هي أنها أنجبت هؤلاء الرواد.. الذين وهبوا حياتهم وأرواحهم.. لإنهاض فلسطين من كبوتها.. والأخذ بيدها.. إلى عالم الثقافة والحضارة والعلم لتقف رافعة رأسها متطلعة إلى شمس الحق ونور اليقين.. مرفوعة الهامة والجبين بهذا الزحف المقدس من آلاف الجامعيين الذين أنارت الجامعة قلوبهم بالحق والانتماء، وفتحت أذهانهم للمعرفة والعلم.. وغذت عواطفهم ومشاعرهم، ونَمَّت في صدورهم بذور الوطنية الصادقة والانتماء.

يقول بسام الصالحي: إن الحس الديمقراطي الوطني العميق هو أبرز ما يميز سلوك الدكتور برامكي الذي واجه بقوة كل ممارسات العدوان الإسرائيلي على الجامعة، وقاوم موجات الاعتقالات والاجتياحات والإغلاقات، وتصدى لإطلاق النار على الطلبة، وحاول بكل ما لديه من السبل والطاقات أن يحافظ على كيان الجامعة وأن يتيح لطلابها أن يحبوا وطنهم، وان يناضلوا من أجله.. وأن يحملوا الكتاب بيد والإصرار والعزم والوطنية باليد الأخرى.

لقد ارتبط اسم الدكتور برامكي باسم جامعة بيرزيت.. مهد الوطنية والنور والعلم ورائدة النضال.. وما قيادته وتوجيهه ونضاله في الجامعة؛ إلا شاهد حيّ على أن الإنسان قضية.. وأن قضية د. برامكي كانت جامعة بيرزيت.

حياة حافلة بالانجازات والإبداع

ولد الدكتور جابي برامكي عام 1929 في مدينة القدس التي شهدت من قبل مولد عرفات، وزهدي النشاشيبي، وقضى طفولته في المدينة المقدسة، ولكنه لم يلبث أن التحق بمدرسة بيرزيت حتى تخرج منها عام 1946، وفي عام 1949 حصل على شهادة الماجستير.

وفي عام 1953 عمل أستاذا في الكيمياء، وعميدا لكلية بيرزيت من عام 1953... ومن ثم أصبح عضوا منتظما في كورال القدس وذلك عام 1974 . في عام 1955 التحق بجامعة مكجيل، وحصل على الدكتوراه في الكيمياء العضوية وفي عام 1959 عين أستاذا زائرا في جامعة مكجيل، وفي عام 1972 شغل منصب مدير دائرة الخدمات للاجئين الفلسطينيين في مجلس كنائس الشرق الأوسط- لجنة القدس.

أخذ القوسَ باريها

وبعد إبعاد رئيس جامعة بيرزيت الدكتور حنا ناصر عُين رئيسا لجامعة بيرزيت بالوكالة ما بين عامي 1974 - 1993.

في هذا المركز الحساس.. لعب دكتور برامكي دورا بارزا هاما في التاريخ الفلسطيني المعاصر.. وسجل بحروف من نور ونار.. أن الأكاديمي العالم.. عندما يتصدى للعمل الوطني فإن نتاجه يكون أعظم نتاج على المستوى الشخصي والقومي على حد سواء.

فقد لعب الدكتور برامكي دوراً هاماً وحيويا في تطوير وصمود الجامعة أمام تحديات الاحتلال الإسرائيلي خاصة عندما تصدى للإغلاقات العسكرية للجامعة خلال الأعوام 1988 - 1992.

وقد تم تعيين الدكتور برامكي رئيسا للجنة التنفيذية لمجلس التعليم العالي عام 1977 حتى عام 1982 كما عين عضوا في مجلس مؤتمرات جمعية بغواش للحوار العالمي.

ومن المراكز الهامة التي شغلها.. تعيينه مستشارا لوزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية، كما كان عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني منذ العام 1996. وقد عين رئيسا للمجلس الفلسطيني للعدل والسلام منذ العام 1998.

ومن أروع انجازاته كتابه "المقاومة السلمية.. بناء جامعة فلسطينية تحت الاحتلال" والذي كتب مقدمته الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ونشر في نيويورك مطبوعات بلوتو عام 2010.

اغتصبوا بيتنا وحولوه إلى متحف

كنت ما أزال صبيا يافعا وأنا أراقب والدي وهو يذهب كل يوم إلى الحد الفاصل بين شطري مدينة القدس المنكوبة، التي احتلتها قوات العدو.. وشردت أهلها بعد أن صادرت أملاكهم وبيوتهم على أثر أحداث نكبة فلسطين عام 1948م.

كان والدي قد قام بهندسة البيت بنفسه.. رسمه بوحي من ذوقه وإحساسه.. وعلى طريقته ليكون عملا فنيا هندسيا مميزا بين قصور وبيوت مدينة القدس.. وكانت للبيت تفاصيل ومقاييس معمارية خاصة نُقشت بكل تفاصيلها على صفحة قلب ووجدان أبي، وجعلت من البيت عملا هندسيا معماريا مميزا.. ما دفع قوى البغي والعدوان أن تحوله إلى متحف يستقبل آلاف الزائرين.. ولا يدخله صاحبه الذي بناه.

كان البيت يقع قريبا من بوابة مندلبوم التي تفصل بين شطري القدس.. وكان والدي يتخذ موقعه قريبا من البيت.. على بعد مرمى حجر، يجلس ساعات وساعات وهو يراقب بيته المنهوب بصمت وحرقة، وبإصرار على التواصل معه.. كان يحدق في الفضاء.. كأنه يتجول في حجرات البيت، ويمسح برموش عينيه جدرانه وحجارته.. ويعانق بشوق كل زاوية من زواياه. أي يد أثيمة جانية.. اغتالت مشاعر هذا الأب المكلوم عندما

سلبته بيته.. أي روح شريرة أنانية حاقدة.. اغتصبت بيت أبي الذي بناه برموش عينيه وخفقات قلبه ونبضات وجدانه ومشاعره.

أي ثورة عاصفة.. وأي حزن جارف وأي شجن.. وأي بركان غضب كان يعصف بكيان أبي الطيب.. وهو يتشرب مرارة الألم وظلم الطغاة.. وغطرسة القوة.. وحماقة الطمع والأنانية.. عندما يأخذ العدو.. بيتك وكيانك وتاريخك أمام عينيك وأنت عاجز لا تملك إلا دمعة وحسرة وآهة..

إنك عندما تقرأ عن قانون أملاك الغائبين تشعر كإنسان ومثقف بالألم والثورة والسخط على هؤلاء البغاة.. الذين يأخذون تاريخك وأرضك وأملاكك باسم قانون لقيط.

ولكنك عندما تعيش هذه التجربة.. وتكتوي بنارها.. وتشاهد والدك وهو يذبح كل يوم أمام عينيك بسكين الأنانية والعنصرية تكون للمأساة طعما آخر وجرحا آخر وألما آخر.. وفجيعة وذكرى.. حفرها العدو.. على صفحات قلبك ووجدانك بنيران الأنانية والبغي.. فأنى لك أن تنسى.. وأنى لك أن تسامح.. وأنى لك أن تغفر؟

وداع اللحن الأخير

في فترة مرضه الأخيرة، زار الدكتور جابي برامكي زميلان من الجامعة.. ورغم إحساسه بالتعب خرج أمام الباب مرحبا بضيفيه، متحاملا على نفسه، متحديا العلة التي ألمت به، واستقبل الدكتور برامكي زائريه بابتسامته المعهودة مرحبا.

كان ذلك اليوم هو يوم التخرج في الجامعة..

وتحدث الدكتور برامكي بهدوئه المعهود، وحكمته التي تجلل كيانه.. وبعد قليل.. طلب إلى شريكة عمره ورفيقة دربه السيدة هيفاء برامكي أن تفتح الباب الشمالي المقابل للجامعة.

ورغم بعد المسافة التي تفصل بين البيت والجامعة، أخذ الدكتور برامكي يصغي إلى نشيد الجامعة الذي يتردد صداه على ألسنة المئات من أبناء طلبة وطالبات الجامعة.

معهد العلم المُفَدّى
دم بعزم وسلام
أنت بالأرواح تُفدى
أيها السامي المقام

كانت شفاهه تردد بهدوء هذا النشيد.. مشاركة منه لأبنائه في جامعة بيرزيت.. جامعة الشهادة والحرية والعطاء. كان ينشد مع طلابه لحن الوداع الأخير، كأنه لا يريد أن يفارق الجامعة التي عاشت في وجدانه وعاش في وجدانها.

دمي ودموعي وابتساماتي بين عكا والقدس

ومن معرفتي الوثيقة بأسرة آل برامكي.. فاني كنت على علم بان والد الدكتور برامكي يذهب بصورة يومية تقريبا إلى القصر الذي بناه بنفسه في القدس ويطوف حوله.. ويتأمله في وجد وهيام.. كأنه عاشق متيم يطوف بيت حبيبته.

هذه الصلة الروحية الوجدانية.. تحمل أعمق المعاني والدلالات.. وتؤكد أننا لن ننسى ولن نغفر ولن نسامح.. وأن كل ذرة رمل اغتصبت من أرضنا.. ستظل تعيش في وجداننا وذاكرتنا.

رفاق برامكي في رحاب قصر والده

عاش جابي برامكي فترة من حياته في منزل والده الذي صممه بنفسه في مدينة القدس.. قرب بوابة مندلبوم.. نقطة العبور إلى فلسطين، وبالذات إلى القدس عبر الجانب الأردني.. كان القصر تحفة فنية أبدعتها عبقرية مهندس فلسطيني، وقد استولت السلطات الإسرائيلية على هذا القصر وحولته الى متحف.

وعند رحيل جابي برامكي.. تفجرت مشاعر الأحرار والمثقفين واليساريين من عرب وإسرائيليين، ممن يعرفون تاريخ القصر.. ويعرفون انه كان المهد الذي ترعرع فيه المناضل العالم د. جابي برامكي.

تجمع طلاب الأستاذ ومحبوه، ومن يعرفون حقائق التاريخ والجغرافيا.. ورفعوا اللافتات وقاموا بتظاهرات متواصلة.. تعلن للعالم كله.. أن مرارة الظلم والقهر والغطرسة التي يقوم بها العدو لن تمحو كل أثر عربي أو فلسطيني في القدس، ولن تغير من حقائق التاريخ مهما تعاقبت السنين والأجيال.

كانت العلياء همة نفسه حتى الرمق الأخير

قبيل أيام من رحيله، طلب من رفيقة دربه السيدة هيفاء برامكي أن تقرأ له آخر مراسلات الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل ليبدي رأيه في رسالة موجهة لنشطاء المقاطعة في جامعات جنوب أفريقيا، وذلك بهدف حثهم على تصعيد وتيرة المقاطعة وتفعيلها.

لقد أذهل هذا السلوك جميع أعضاء اللجنة التوجيهية للحملة. فقد كان الرجل في النزع الأخير من حياته.. وزادت مظاهر الدهشة والذهول.. إذ كيف يمكن لشخص في غرفة العناية المكثفة في المستشفى بين الحياة والموت ويراوح بين الغيبوبة والوعي.. كيف يمكن لمثل هذا الإنسان أن يفكر في واجباته النضالية حتى آخر رمق في حياته. ولكن جابي برامكي.. حالة إنسانية ونضالية نادرة.. قلما تتكرر.

وصفه أحد زملائه بأنه صاحب همة وإرادة تفوق كل وصف.. لقد كرس حياته للتربية والتعليم والكفاح ضد الاستعمار الإسرائيلي.. وبذل كل طاقاته وقدراته لينال الشعب الفلسطيني حقوقه كاملة غير منقوصة.. وخاصة.. حرية تقرير المصير والعودة، والعدالة والاستقلال.

كليات تحت أشجار الزيتون

يقول الدكتور عبد الكريم أبو خشان في معرض حديثه عن عقلية الدكتور برامكي الإبداعية، وقدرته على التحدي والصمود: استطاع برامكي بحكمته أن يجنب الجامعة مزالق الانحناء أمام القرارات العسكرية والاستسلام للقمع والتنكيل. فقد أغلقت السلطات العسكرية الجامعة عشرات المرات، فكان التحدي، وكانت الإرادة وذلك بقرار استمرار الدراسة والتدريس..

في البيوت
والمساجد
والكنائس
والعمارات المستأجرة
وتحت الأشجار
وفي الساحات العامة

وكان التفاني في الخدمات التطوعية، والإصرار على العطاء والتحدي هو عنوان المرحلة حتى أصبحت جامعة بيرزيت أنموذجا فريدا عالميا في العطاء والصمود.

بيرزيت منارة للوطنية والعلم

بفضل فلسفة وصمود وتوجيه جابي برامكي أصبحت جامعة بيرزيت قبلة للأحرار والأكاديميين والفلسطينيين والعرب، الذين توافدوا عليها من شتى أنحاء المعمورة.. كانوا في حالة وجد وشوق وحب للتوحد والتواصل مع كوكبة من العاشقين لتراب هذا الوطن.

ليالي بيرزيت الجامعية الفلسطينية

كنا نأتي إلى بيرزيت من كل الضفة الغربية إلى مهرجانات ليالي بيرزيت التي كانت تشبه ليالي مهرجانات بعلبك في لبنان والمهرجانات الثقافية من سوق عكاظ، والموسيقى من فرقة موسيقى بيرزيت، وكانت الأجواء الفولكلورية والدبكات الفلسطينية والمعارض، والتراث الفلسطيني، وكان التجوال بهذه الأجواء هو خلق هوية ووطن وما زلت أذكر هذه الأجواء والموشحات الأندلسية والغنى والتراث والغنى القديم والمأكولات الفلسطينية، ومن هذا النمط وهذه التجربة الفريدة بفلسطين، هي اندماج المواطن مع نشاط الجامعة كانت فكرة عبقرية.

كان القصاصون والزجالون يغنون العتابة والميجنة لتحرير البلاد ولطرد الاحتلال، فاختلط الناس بالطلبة واختلطت الأجيال واختلط المناضلون، وسجلوا تجربتهم السياسية النضالية الفريدة.

جامعة بيرزيت هي أكبر سرح أكاديمي ترك بصماته على تاريخ المنطقة. جابي برامكي ابن القدس ويافا العروبة وضع القومية العربية فوق كل شيء. القرآن والإنجيل في تفهم فلسفه الحياة، وخدمة الحياة، وحب الحياة والأوطان، والتسامح بعيدا عن أي تعصب ديني، ووقف أمام سد أي تعصب أو تطرف ديني، وخصوصا عندما قامت حركة في الجامعة بعصيان وثورة من قبل من سموا أنفسهم بالمهدي، وحركه الإخوان المسلمين الذين استولوا على الجامعة.

تصرف برامكي بكل حكمة ودبلوماسية لأنه كان يوجد العناصر التي أرادت أن تشق الصف الوطني في الجامعة وأن تعمل على التفرقة الدينية، قال لي ألبرت الصديق ورفيق درب للدكتور جابي: لا نريد البكاء على المصاب الحزين ولكن يجب علينا ان نُحيي ذكراه.

وطن يتألق تحت لهيب النار

من أروع الظواهر الوطنية والقومية في التجربة الفلسطينية، أنه كلما زادت وطأة الاحتلال وقسوته وجبروته تألقت الجماهير قيادة وشعبا في أساليب المقاومة والتحدي، وكلما زاد التعسف ازداد الوطن تألقا وابتداعا لأشكال المقاومة والثورة.

ويقول الدكتور أبو خشان:

"لقد فرض هذا الواقع الجديد في جامعة بيرزيت رؤية جديدة للإنسان الفلسطيني؛ تراجعت على أثرها ادعاءات التفوق العنصرية لشعب الله المختار. لقد واجه الاحتلال أناسا يتحدون بعلمهم وتفانيهم

واعتزازهم بالانتماء إلى الشعب والقضية كل مفردات العنصرية والقمع والقهر، وأثبتوا للعالم بأسره.. أن الإنسان الفلسطيني قادر على أن يكون ندا.. وأنه قادر على إفراز قيادات خلاقة مبدعة.. في حجم وقامة جابي برامكي.. وقد تأكدت هذه الحقيقة لدرجة أن كثيرين من مثقفي هذا الكيان الإسرائيلي شعروا بجدارة الشعب الفلسطيني، وعلو كعبه، وأحقيته بالحرية والسيادة وقدراته على أن يكون أنموذجا فذا لمقاومة الظلم والتعسف بالعلم والكتاب والجامعة والقيادة.. بالتخطيط والإيمان والإرادة.. وهذا ما أمعن الدكتور جابي برامكي في تفاصيله في كتابه المقاومة السلمية.

جابي برامكي .. وسيمفونية النضال

بث جابي برامكي في نفوس طلابه ومساعديه ورفاقه روح المقاومة السلمية.. لقد أغلق الاحتلال الشوارع والممرات التي توصل إلى جامعة بيرزيت.. ومرت أيام طويلة وقاسية، وشهور وسنوات على ذلك الإغلاق.. يقول أحد الجامعيين عن تلك الفترة:

"كنا نتجمع قبل نقاط التفتيش، ونمشي في مجموعات، ننشد الأناشيد، ونهزج بأغاني الحرية والانتماء لفلسطين. كنا نكابر، ونكتم الألم، رغم حر الصيف، وبرد الشتاء، شعارنا نموت واقفين ولا نركع، ذلك كان لسان حالنا الذي ينتقل من شخص إلى آخر، ومن جيل إلى جيل".

الأقلام في مواجهة البنادق

إن إغلاق الجامعة وحرمان الطلاب من تلقي العلم، وحرمان الأساتذة من أداء واجبهم المقدس.. أشعل في نفوس الجميع روح التحدي.

يقول أحد الأساتذة: "قررنا إمعانا في التحدي أن نحاضر في طلبتنا على الحاجز تماما. فالتف الجنود على حلقة الدرس مشهرين السلاح. وما هي إلا لحظات حتى غُصَّ المكان بالجنود والسيارات والآليات العسكرية، ولكننا واصلنا التدريس جلوسا على أسفلت الشارع، وواصلت إلقاء محاضرتي التي كان عنوانها "العلم كوسيلة للحرية" وسرى الحماس في نفوس الطلاب، وشاركوا في النقاش بشجاعة وجرأة.. وعندما حاول الجنود التشويش على المحاضرة، بإشهار أسلحتهم فوق رؤوس الطلاب والطالبات.. عندها طلبت إليهم أن يرفعوا أيديهم بالأقلام كشعار في وجوه البنادق قائلين: بأقلامنا نقاوم بنادقكم.

وكانت وسائل الإعلام حاضرة في المكان، فتعالى التصفيق، وتراجع الجنود أمام حرج تصرفهم.

في اليوم التالي تفاجأنا بفتح الطرق إلى الجامعة، فقد أدرك الاحتلال عبث محاولاته لثني إرادة الصمود والتحدي عند إنساننا الفلسطيني.

يقول الدكتور عبد الكريم أبو خشان مخاطبا الدكتور جابي برامكي: أيها المعلم الصديق يحق لجامعة بيرزيت أن ترفع الرأس عاليا اعتزازا وتقديرا لمن قاد سفينتها في جامعة الشهادة والحرية والعطاء.

ويقول الدكتور حنا عيسى: جابي برامكي يرتبط بمدينة القدس حيث شهدت مولده وصباه، وقد ناضل من أجلها بكل قواه، أما جامعة بيرزيت فجعلها موقع بناء، علم فيها، ربى الأجيال، خرج بناة الوطن، جعل منها جامعة متميزة، فنهل العلم منها.

طلاب من كل حدب وصوب.

جابي لم يعرف الكلل والملل في مشواره النضالي، والتربوي استمد الدكتور جابي اختياره من قيم وأصالة شعبه الفلسطيني، عشرات السنين وهو في لهيب المعركة.. وهو مع الأمل.. مع النهار.. مع قطرات المطر، وجذور الشجر المكسوة بتراب الوطن وعروق الصخر والحجر.. مع الحياة.

برامكي .. النبيل الإنسان

ويقول عزام توفيق أبو السعود:

عملت مع جابي برامكي أربعة عشر عاما، لم أكن أشعر فيها بأنها علاقة بين رئيس ومرؤوس، بل علاقة أقرب ما تكون إلى العلاقة الأسرية، وأحيانا علاقة الأستاذ بتلميذه.

لم يرفع صوته في وجهي إلا مرتين بسبب أخطاء لغوية.. وفي المرتين أعطاني درسا في قواعد اللغة الانجليزية وبالكلمات التي لا تجمع.

عملت معه في ظروف قاسية، خاصة حين تكرر إغلاق الجامعة من قبل السلطات الإسرائيلية في الثمانينيات وأوائل التسعينيات.

رأيته صلبا في مواجهة قوات الاحتلال، يتأبط ذراع ألبرت اغازريان ليقابل قادة القوات المحاصرة للجامعة.

ورأيته يوجه وينسق لإيجاد أماكن بديلة لاستمرار العملية التعليمية في فترات الإغلاق، ورأيته في قمة السعادة في أول مؤتمر سياسي كبير نظمته جامعة بيرزيت في فندق الامباسدور بالقدس.

تاريخ جامعة .. ومنهاج ثورة

ألف الدكتور جابي برامكي كتابه "مقاومة سلمية: بناء جامعة فلسطينية تحت الاحتلال".. وقد كتبه بالانجليزية. وهو ترجمة ذاتية لمسيرة حياته.. ومسيرة الجامعة فهو يؤرخ لجامعة بيرزيت من خلال رؤيته لقصة حياته، أو هو يؤرخ لحياته من خلال الجامعة.

يقول الرئيس كارتر في مقدمة الكتاب:

إن إخلاص جابي برامكي وتفانيه في خدمة جامعة بيرزيت يوفر لهذه المؤسسة الاستدامة، لا بل التطور والزهو في ظروف شبه مستحيلة. وفي الكتاب يوثق برامكي لحقائق التاريخ والنضال ويبين كيف تمكن الفلسطينيون من مقاومة الاحتلال الإسرائيلي منذ العام 1967 بطريقة لا عنفية، مما يجعل هذه المقاومة أكثر صعوبة.

ويبين برامكي مدى التجاوزات الإسرائيلية في احتلالها الأرض، والتي لم تكن فقط مجرد استعمار للبلد بل تكملة لما بدأته الحركة الصهيونية في العام 1917. ومن ثم في العام 1948 عندما تم احتلال 78 في المائة من الأرض الفلسطينية، وما تم خلال هذا الاحتلال من تطهير عرقي للعرب، ومن ثم تبعه احتلال باقي فلسطين في عام 1967.. مع تواصل عملية التطهير العرقي.

تلقى سهام العدو بالصبر والصمود

وفي معرض ذكرياته عن هذا الكتاب يقول الدكتور برامكي:

حاولت في هذا الكتاب، وقد كتبته بالانجليزية؛ أن أبين للعالم كيف تمكنت الأجيال من طلبتنا من الثبات في وجه الإهانات والهجمات التي تعرضوا لها، والتي كانت تستهدف هويتهم بل وحقهم في الحياة، أعتقد أن الصمود صفة ملازمة لشعبنا، ومن يشاهد المعاناة اليومية لشعبنا يتعلم فضيلة الصبر والحكمة والثبات والرجولة. ومن يراقب المعاناة اليومية لطلبة جامعاتنا، ويتلمس رغبتهم في التعليم والتعلم في جامعة بيرزيت، لا يسعه إلا أن يعترف بأهمية هذا الصمود، والوقوف أمام المحاولات المتعددة لإيقاف العملية التعليمية بأكملها.

بين غاندي وبرامكي

ويقول الدكتور جابي برامكي: من أهم ما تعلمته في حياتي العملية هو فاعلية المقاومة السلمية القائمة على "اللاعنف" تحت أصعب الظروف.

هذا ما يقوله برامكي.. ولعله استوحى هذا المبدأ من حياته العملية كما قال.. ولعل ذلك مرده إلى ثقافة عظيمة مصدرها ذلك الزعيم العالمي الخالد المهاتما غاندي.. الذي حارب أكبر إمبراطورية في العالم. وهي الإمبراطورية البريطانية وانتزع منها استقلال الهند.. وذلك بثورته القائمة على اللاعنف.. فقد حارب معركة شرسة مع جحافل الإمبراطورية البريطانية وانتصر عليها دون أن يطلق رصاصة واحدة.

يقول برامكي: عندما تستخدم قوى الظلم أقسى الطرق النفسية والجسدية ضد شعب مسالم في محاولة لقهره وسحق عزيمته، وعندما تستهدف قوى البغي العدوان هوية طلاب جامعيين، محاولة أن تسلبهم هويتهم وتغتصب حقهم في الحياة، فإن التصدي لهذه البربرية بالصمود والثبات، والإصرار على إكمال الهدف ومقاومة كل سبيل لإيقاف عملية التعليم والتعلم، هذا الصمود وذلك النجاح في المقاومة انجاز كبير، لم يأتِ بسهولة بل بتحمل الكثيرين الألم والإهانة، وهو ما تطلب منا المثابرة، والحفاظ على الكرامة، واستعمال الحكمة، وأهم من كل ذلك الإيمان القوي بقضيتنا، والإيمان بأننا على حق وأصحاب حق.

المسالمون يحاربون بالمبدأ والقدوة

لقد نشأت جامعة بيرزيت على يد فلسطينيين مسالمين، فمؤسس الكلية هو موسى ناصر الذي وضع الأساس للعمل الايجابي اللاعنفي لخدمة المجتمع، والذي يتلخص فيما يمكن تسميته بـ"روح بيرزيت" القائمة على تغليب المصلحة العامة على الخاصة.

لقد ساهمت جامعة بيرزيت في وقف هجرة الأدمغة من فلسطين، لتصبح فيما بعد هجرة معاكسة، مما جعلها قادرة والى درجة كبيرة من وضع عقبات أمام التطهير العرقي في فلسطين، والذي كان ولا يزال شيمة الحركة الصهيونية منذ نشأتها.

ذكريات ذلك الاثنين الحزين من حزيران

ومن ذكرياته المثقلة بالشجن والأسى.. يتناول الدكتور برامكي كتابه ليقرأ منه المقطع التالي: لم يخطر على بالي في ذلك الاثنين الخامس من حزيران عام 1967، إن الجيش الإسرائيلي سيدخل ويحتل باقي فلسطين.

إذ لم يكن أحد منا مستعدا لمثل هذه الخطوة لا ذهنيا ولا ماديا.

بدأ يوم الاثنين كأي يوم عادي، والطلبة في الكلية في اليوم قبل الأخير من الامتحانات النهائية. وعندما سمعت أن الجيش الإسرائيلي يتقدم في الضفة الغربية لم أعط الخبر أية أهمية.

وصممت على أن يستمر الطلبة في تقديم الامتحانات.. وما بين ليلة وضحاها، وجدنا أنفسنا تحت الاحتلال الإسرائيلي، الذي لا يزال فعليا إلى هذه اللحظة تحت أسماء مختلفة.

والآن..

ليس هناك ختام لهذه الباقة من الورد أروع مما قاله صديقي الأستاذ المؤرخ ألبرت أغازريان:

إن برامكي في كتابه مقاومة سلمية ينتصر للمشهدية الفلسطينية، مشددا على أهمية توثيق التاريخ الشفوي للشعب الفلسطيني، معتبراً أن الرواية سلاح هام يمكن استخدامه لتعزيز الصمود كما أن الرواية الفلسطينية التي يندرج كتاب برامكي في إطارها هي لمعة العين وإرادة الحياة.

***

أخي الدكتور جابي برامكي:

أرجو أن تكون مساهماتي في هذه السلسلة من المقالات امتداداً لمحاولات توثيق التاريخ الشفوي للشعب الفلسطيني. لقد كنت دائما أستاذنا، أستاذ خمسة أجيال على التوالي.. إن أفضل التربويين هو من يربى من خلال تحفيز التعلم لا تكريس التعليم بمفهوم التلقين والوصاية على العقول. فقد تعلمنا جميعا من جابي برامكي دون أن يعلمنا معنى الجمع بين الكرامة، والتواضع، والعطاء اللامحدود في مسيرة التحرر التي تبدأ بالضرورة بتحرير العقول.

(2012/9/7)

obeikandl.com

obeikandl.com

المهندس حسيب صباغ

ابن مدينة صفد من لاجئ فلسطينيّ إلى مواطن عالميّ

قال فيه كارتر:

أرى في هذا الفلسطيني الذي فقد وطنه مواطنا عظيماً في هذا الكون الكبير

مواقفه الوطنية تُمليها الشجاعة والحكمة

فلم يكن يبالي بأهوالٍ قد تذهب بحصيلة العمر

كان من أثرياء العالم ولكنه وظَّف ثروته وتفوقه وعمره ليعود إلى صفد

أول فلسطيني دخل البيت الأبيض

كان دائماً أقدر من يطفئ نيران الخلافات في البيت الفلسطيني

لا كرامة لنبي قوم في وطنه. لماذا أنا أكتب عن حسيب صباغ؟ لأنه البليونير الفلسطيني؟! لا. لا.. أكتب عنه لأنه من البليونيريين الفلسطينيين الذين كان اسمهم من الأوائل، أنا أكتب عن حسيب صباغ الفلسطيني اللاجئ إلى لبنان، عاش فيها واعتبرها وطنه الثاني.

ابتدأ حسيب صباغ مسيرته وكفاحه في تأسيس أكبر شركة في الشرق الأوسط، وأكبر عاشر شركة في العالم اليوم. أسس عام 1945 في فلسطين مع سعيد خوري وكامل عبد الرحمن شركة المقاولين العرب في حيفا فلسطين، وبعد النكبة ابتدأ من جديد بتأسيس الشركة في بيروت.

لماذا أكتب عن هذه الأسطورة.؟

أنا أرى لكي تكون مسيرة الرجل قدوة للأجيال القادمة، لكي تتعرف على الذين كانوا الرواد الأوائل، والذين لا يعرفهم هذا الجيل، وأولهم كانت لي تجربة مع إحدى بناتي المثقفات جداً والتي درست الطب في إيطاليا.

قالت لي: هل تريدين أن تقولي إن حسيب صباغ ساعد من ماله وثروته القضية الفلسطينية والطلاب المحتاجين مثل رفيق الحريري؟ أنا أُستفزيت وحاولت شرح ما قام به حسيب صباغ. وقالت لي ديانا: هل عندك وثائق؟

أنا أضع هنا الوثائق ردا على ابنتي وجيلها الذي لم نضع أمامهم أعمال الرواد الأوائل الذين هم البوصلة، وهم الذين ساعدوا القضية الفلسطينية بكل الوسائل، إن على المستوى السياسي أم على المستوى الوطني والإنساني.

رحل حسيب صباغ وكرمته لبنان تكريما يليق بعظمته ومكانته، وخرجت بيروت عن بكرة أبيها لوداعه الذي أصبح لبنان وطنه الثاني.

بكيت حين سمعت من ابنة لبنان التي كانت موجودة في الكنيسة الأرثوذكسية في بيروت في الوداع الأخير للرجل الذي يسميه اللبنانيون بكل احترام وتقدير (المعلم)، كان وداع الرجل الذي اعتبر لبنان وطنه الثاني وأقام شركته السي سي سي في لبنان بعد فلسطين، وأعطى مئات أو ألوف الوظائف لكبار المهندسين اللبنانيين وللإخوة اللبنانيين والفلسطينيين بدون تفرقه من خلال شركته التي أصبحت فروعها في كل أنحاء العالم. كان التكريم يليق برجل الأعمال المبدع حسيب صباغ. لقد حضر القداس رئيس الوزراء الحريري وأشاد بالصداقة التي كانت تربط والده رفيق الحريري بحسيب صباغ. والمشاريع الإنسانية التي كان يقوم بها منها تبرعات لتعليم الطلاب اللبنانيين والفلسطينيين والتبرع للمؤسسات الطبية التعليمية اللبنانية.

التاريخ لمن يكتبه

كُتب عن حسيب صباغ عشرات المقالات من كل لبنان، ومن العالم العربي ممن عرفوه. ومن النواب، والوزراء، ورجال الدين من كل الطوائف، فهو المعلم.

اللبنانيون الفينقيون الذين هم من أنجح رجال التجارة، لماذا هذا الجيل لا يعرف؟ ومن حقه أن يعرف اللبنانيون العباقرة في التجارة، والبنوك ورجال الأعمال في العاصمة الاقتصادية في الشرق، يعرفون ماذا يعني هذا النجاح الاقتصادي لأهم رجل اقتصادي فلسطيني، الذي أصبح لبنان وطنه الثاني.

اللبنانيون كتبوا ومجدوا الرجل، لقد كتبت العشرات من المقالات في الصحف اللبنانية عن هذه العبقرية التي نشبت في تربة الحَضارة في عاصمة المال، والعلم، والتجارة والثقافة بيروت.

لمسات العبقرية والنبوغ في حياة حسيب

هيام الشامي بكت وهي تصف لي الوداع الأخير للمعلم. هيام وزوجها المهندس، هم رفاق الدرب لحسيب صباغ لقد واكب زوجها المهندس اللبناني اللامع حسيب بكل مشاريعه، ومثله مثل آلاف اللبنانيين انتقلوا بعد الحرب اللبنانية إلى أثينا.

في بالتيمور عندما زارتنا هيام الشامي في بيت زوج ابنتي الطبيب البروفيسور في مستشفى جون هوبكنز، هيام آتت إلى بالتيمور لتؤمن وجود ابنتها الدكتورة هالة، التي أتت للتخصص وتعمل مع زوج ابنتي، دكتور بول حسون، في المستشفى الشهير جون هوبكنز، تحمل لابنتي وزوجها هدية قيمة: كتابين من الحجم الكبير، وكانا بطباعة جميلة وورق أجمل، وكانت إحدى الجامعات الكبرى الأمريكية قد أعدته. قالت لنا أهديكم كتاب المعلم.. لولا حسيب صباغ لكانت آلاف العائلات اللبنانية والفلسطينية قد تشردت بلا مأوى، ولكن نحن اليوم في اليونان، في مؤسسة حسيب صباغ.

حسيب صباغ .. مؤسسة تفوق الدول

حسيب صباغ الآن مؤسسته تشغل 75 ألف موظف يعولون أُسرا بكاملها.

رأيت دموع المرأة، وكانت تصف لي الشعب اللبناني من كل الطبقات والطوائف والفلسطينيين في لبنان والمخيمات الذين بكوا حسيب، وقالت لي ربما لا تعرفين ما يكفي عن هذا الرجل وأرجوك أن تكتبي عنه.

وعندما حضرت مؤتمر الدكتور زياد العسلي الذي تقيمه جمعيته السنوية في واشنطن، جمعية الدفاع من أجل فلسطين، كان قد قدم الجائزة للدكتور جراح القلب الشهير جبران من مستشفى كليفلاند. والدكتور جبران، الذي يرأس القسم الكبير في المستشفى لجراحه القلب، هذا القسم في المستشفى الذي بناه وتبرع به حسيب ويحمل اسمه لجراحة القلب. عندما لم يستطع أن يعمل شيئا لوقف شلال الدم في لبنان، وتوجه مع مؤسسته إلى أثينا، أخذ قرارا بأن يؤسس المؤسسة الإسلامية المسيحية في بيروت.. أي مركز التفاهم الإسلامي المسيحي، وأسس هذا المركز في جامعة جورج تاون للدراسات الإسلامية المسيحية وهو أول مركز بجامعه أمريكية، أي مركز حسيب صباغ للدراسات الإسلامية المسيحية.

ولصديقتي اللبنانية هيام الشامي، ودموعها ومحبتها وتقديرها للمعلم حسيب وهديتها القيمة لنا، كتاب مسيرة حسيب صباغ. لها الفضل الكبير أن أُعرّف بابن بلدي، ابن صفد وأن أُعَرف القارئ ألم الجليلي الثائر، الذي صنع من معاناته، ومن معاناة شعبه، أروع قصة نجاح وعبقرية، إنها أسطورة وإرادة البقاء .

حسيب صباغ علم من أعلام الاقتصاد العالمي.. فلسطيني من صفد. يحق لفلسطين أن تفخر بأنها أنجبت هذه العبقرية العالمية التي جمعت بين الهندسة، والبناء، والاستثمار، والعلم، وتفوقت في حسها الوطني وانتمائها لفلسطين، فما أرخص الثروة والملايين والانجازات والمشاريع إذا لم تكن مكرَّسة لحب الوطن وخدمة شعبه، وتقديس ترابه.

حسيب عبقرية الثراء المنتمي

كم في العرب من أثرياء؟

كم فينا من الأغنياء ممن جاوزت ثرواتهم المليارات؟

وكم بيننا من أصحاب رؤوس الأموال والمشاريع العالمية، والثروات الطائلة ذات الأرقام الفلكية؟

ولكن كم من هؤلاء نتذكره.. ونفخر به ونتيه على العالم به.

كان حسيب صباغ أسطورة إنسانية، وعقلية علمية، وكفاءة هندسية وإدارية، كان قادرا على أن يحوّل التراب إلى ذهب، بموهبة وأصالة وعلم وخبرة وبُعد نظر.. وبصدق ومهنية وشفافية عالية.. كان في الطليعة دائما، يحقق المعادلة الصعبة النجاح في الأعمال، والأخلاقية النظيفة والسلوك القويم.

غاية مثلثة الأبعاد

حسيب صباغ.. رجل عاش ليعمل، وترجم حياته في سلسلة مشاريع ومؤسسات تجمعها غاية مثلثة الأبعاد:

الإعمار

والتطور

وخدمة الإنسان

عاش حياته وكأنه في رحلة دائمة، جاب العالم، تاركا حيثما حل جهودا مثمرة، ونشاطات خيّرة، وأعمالا ناجحة.

كان حسيب صباغ رجلا يعشق الإبداع، ويدمن التفوق، وكان يؤمن بما يقوله المتنبي العظيم:

"ولم أرَ في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام"

إنه رجل يحترف الإبداع والإتقان، في كل ما يفعله أو يقوم به، يحاول أن يجعله صورة من الكمال.. أو قريبة من الكمال.

صفد عروس الجليل

وكان حسيب ابن أصل، ينتمي إلى عائلة صفدية عريقة، ولد في كنف أُسرة وجيهة، كريمة، تحافظ على مبادئها الشرقية الجميلة، وعلى تعاليم دينها المسيحي، فَتَمسك بتقاليد الأسرة طوال حياته.. ولم يُسمع عنه أنه أخل يوما بمبادئ الأخلاق، ظل دائما ملتزما بأصله الشريف ونسبه الرفيع.

ولد حسيب صباغ في صفد ذلك المصيف البديع الذي يعلو عن سطح البحر ألف متر تقريبا، وكان أهلها يتمتعون بهوائها النقي في الربيع والصيف، ويهربون من بردها القارس في الشتاء بنزولهم إلى طبريا الجاثمة تحت سطح البحر بمئتي متر.

وكان في صفد في تلك الفترة ثلاثمائة أسرة كاثوليكية.. وكان معظم أفراد المدينة من المثقفين بسبب وجود مدرسة إنجيلية راقية، يؤمها الشبان والشابات من كل الأديان والطوائف من المدينة والجوار.

وكان لحسيب شقيقان، وخمس شقيقات، أكبرهن الآنسة سعاد التي كان لها النفوذ الكبير في الأسرة، وهي التي لم تتزوج بل تفرغت لمساعدة والدتها، بعد وفاة الأب في ريعان شبابه.

وكانت أسرة صباغ من العائلات المرموقة في المنطقة، سواء في مدينة صفد أو في مدينة طبريا، حيث كان عم الأسرة قنصلا عاما لفرنسا.

وارتبطت أسرة الصباغ بأسرة "الخوري" التي كانت من أكبر العائلات وأعرقها في منطقة "الحولة" قبل أن تستولي عليها إسرائيل في أوائل الخمسينيات.

وكان حسيب، رجل برّ وخيرٍ وكرم، تجهل شماله ما تصنع يمينه، ولو تمكنت العائلات التي أحسن إليها أن تتكلم، لذكرت أياديه البيضاء التي لا حصر لها.

كان صديقا صادقا لمعارفه، ولكل الذين يعيش معهم، فهو يخدم الجميع، ولا يتكبر على أحد، برغم ما له من مركز مرموق.

وهو متواضع وخجول، يوحي بالثقة لمن يتباحث معهم، ويتميز بالأمانة في معاملاته التجارية الواسعة مستلهما فيها أولا وأخيرا ضميره الحي.

حسيب صوت وصورة

وعُرف حسيب بابتسامته الهادئة، ووداعته على إباء وأَنفه وامتاز بحكمة وبصيرة، وسيرة يواكبها الكفاح والفلاح والكد والعرق والسماح.

ويشهد كل من عرفه بأنه يمتاز بسمو في القلب والخلق، وصفاء في الروح، وسخاء في الخير والعطاء، وبهاء صورة على نقاء طوية فكأنه أنموذج لفروسية العربي وشجاعته وكرمه.. وعقله ومفاهيمه ورويته.

وفي طليعة بناة الأوطان

حسيب صباغ إنسان يحب الناس حبا جما، ولا يحول بينه وبين حبه دين أو مذهب أو إقليم، لذلك تراه مع الخير حيثما وجد إلى الخير سبيلا، ومع الإنماء والتقدم حيثما توافرت شروط النجاح، وهو مع المحتاج في كل مكان، إن وراء ذلك الرجل الذي يحترف الأعمال والأرقام والحسابات بدقة وموضوعية قلبا رقيقا، وحسا مرهفا، وإنسانا بسيطا.

وإن أصدق ما يوصف به حسيب صباغ أنه رجل المروءَة.. والمروءَة في اللغة تعني:

- الصدق
- والشرف
- والنخوة
- والكرم
- ونصرة الضعيف

ولا أعتقد أن في اللغات الأجنبية كلمة تشمل هذه المعاني التي كان حسيب صباغ تجسيدا حيّا لها.

ولئن كان بناة الأوطان في الأساس هم بناة المؤسسات، فإن حسيب صباغ علم من أعلام بناة الأوطان في ميزان كل منصف أو مؤرخ أو باحث.

ففي مرحلة غياب الأرض يتوجه المشردون إلى مؤسساتهم لعلهم يجدون فيها ما يعوضهم عن الأرض المفقودة. وكان حسيب يدرك انه في حالة غياب المؤسسات في وطننا العربي، يفقد العمل السياسي كثيرا من معناه، وتصبح القدرة على المنافسة على قوى الإنتاج سواءً في ميدان السلع أو الخدمات، محدودة وضيقة أشد الضيق، ولا تستطيع أن تجابه قوى الإنتاج الأخرى في عالم مجنون متغير، آخذ في الانفتاح بعضه على البعض الآخر.

من هنا جاء إصرار حسيب على إنشاء المؤسسة الهندسية العملاقة التي قام بها، كما أسهم في إقامة المؤسسات الفلسطينية الأخرى كالبنك العربي، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية، وصندوق الطلاب الفلسطينيين، ومؤسسة التعاون وغيرها. وكان عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني، وعضوا في المجلس المركزي.

مفهوم الريادة كما يتجلى في مسيرته

الريادة في حياتنا سيرة متكاملة من النجاح والخلق والعمل الخير، وقد كان حسيب صباغ رائدا، بنى وهَندَس وعمرَّ وأخذ مكانته في طليعة الرواد.

ذهب إلى الخليج في مقتبل العمر، وأقام هناك يعمل ويبني ويجعل من نفسه قدوة وأنموذجا في حقل النجاح العربي فيرتفع إلى القمة، ويبقى متواضعا، وتكثر أعماله بلا حدود، فيظل أبا حنونا.. كتلة من المشاعر الأبوية الحانية، وتكبر ثروته المالية، ولكنها على حجمها تظل دون ثروته الوطنيّة والخُلقيّة بكثير.

سر حسيب صباغ

سر حسيب صباغ الخفي، وربما الواضح، أنَّ المال لم يأخذ منه الوقت، بل على العكس تماما أعطاه المزيد منه.

ومنذ اللحظة الأولى في حياته العمليّة، ظل هناك دائما وقت للعمل المهني، وظل هناك دائما وقت للعائلة، وظل هناك دائما وأبدا وقت لفلسطين التي فقدها حسيب صباغ يافعاً وكرَّس لها كل حياته في الصبا والشباب والكهولة لعله يعود إليها يوما.

وطنية حسيب صباغ

لم يكن الوطن بالنسبة لحسيب صباغ مجرد بيت، فقد ملك العشرات من البيوت، وليس أرضاً فقد حاز على المسافات والمساحات وليس مالا أو كنوزا، فكلها لديه، امتلكها وتمتع بها وأفاض منها على نفسه وعلى غيره. فالوطن عنده حلم طفولة، وعزة شباب، وكرامة شيخوخة، وإحساس نبيل بالانتماء، وشعور سامٍ بالشموخ.

الوطن في وجدانه أنشودة أزلية يحلم بها، ويعيش معها، وتعيش معه، تعشش في مسامه، تدغدغ طموحاته. الوطن في عينيه شمس ساطعة يرى من خلالها سر الوجود الأبدي، وخبايا الرغبات الإنسانية، وخليط المشاعر والأحاسيس من أحلام وواقع، ينام عليها وبها، ويصحو عليها وبها.

الوطن في عينيه دمعة، تحجرت وتجمدت وأبت أن تسيل وتسبح وتذهب أدراج الرياح.

دمعة تكلست في المآقي أكثر من نصف قرن، حتى تبقى علامة مضيئة يتذكر من خلالها بان طريق الخروج من الوطن، يحتاج إلى طريق العودة إلى الوطن. كان الوطن بالنسبة لحسيب صباغ همّا في الليل، وانشغالا في النهار، وكم كان انشغالا في الليل والنهار لا مكان معه للصحة والراحة، ولا وقت للتسلية والترويح.. فهو في سلم أولوياته، وليس هناك ما يتقدم عليه، أو ينازعه المكانة بالغا ما بلغ.

وكان يتحدى حافة الهاوية

وكان شجاعا صادقا مع نفسه.. كانت مواقفه الوطنية الجريئة تضعه على حافة الهاوية، ولكنه لم يكن يبالي بما سيواجه من أخطار وأهوال، قد تأخذ بكل حصيلة الجهد، وبكل نتاج العرق وتعب العمر ولكنه يرفض أن يتراجع، لان الأمل القادم بالنسبة له أهم من كل شيء، ويهون أمامه كل شيء.

صداقة تفوق صلة الدم

كتب سعيد الخوري.. ابن خال حسيب ومن أقرب الناس إليه وألصقهم به يصف نشأة حسيب فقال:

كان عمه الأصغر توما صباغ من ألمع رجالات المنطقة، وقد درس القانون، وله فيه نظريات واجتهادات ولكنه لم يمارسه، بل آثر عليه الأعمال الحرة، وبرز فيها.

ولم ينجب توما صباغ ذكورا، ولذا أولع بحسيب منذ طفولته، وكان له الأثر الكبير على نشأته، ولم يكن يرد له طلبا لفرط محبته له.

توفي عمه، ثم والده وهو لا يزال في مطلع الصبا، فتعهدت أمورهم والدته بمساعدة عمته مريم صباغ وكانت سيدة تضاهي الرجال في مقدرتها، فتركب الخيل، وتتصدر الاجتماعات، وتحسم الخلافات، ابتدأ حسيب دراسته في المدارس الحكومية في صفد، وكان من المتفوقين في الدراسة، وفي الألعاب الرياضية أيضا. فكان رئيسا لفريق كرة القدم وفي سنة 1936 انتخب من بين جميع تلاميذ المدارس الثانوية في صفد ليلتحق بالكلية العربية في القدس التي كانت حكومة الانتداب تنتقي خيرة التلاميذ وتلحقهم بها.

وكان لا يذعن للباطل

وفي أثناء دراسته اتهمه أحد أساتذته بأنه أرسل إليه كتابَ تهديد، فأوقف عن الدراسة، وهدده أحمد سامح الخالدي مدير الكلية بالطرد، إذا هو لم يعترف بذلك.

ولكنَّ حسيبا رفض، وأجاب بأنه يفضل أن يترك الكلية على أن يعترف مجبرا بشيء لم يفعله. ولما تأزمت الأمور ذهب اثنان من الوجهاء إلى القدس لشد أزره.. وكان توجيههما إليه أن يقول الحق مهما كلف الأمر. وظل حسيب على موقفه.. واضطر احمد سامح أخيرا إلى التراجع.

بعد حصوله على شهادة الدراسة الثانوية التحق حسيب بالجامعة الأمريكية في بيروت ليدرس الهندسة المدنية، وعرف في تلك الفترة بالجد في العمل، والاستقامة، في الأخلاق، والتمسك بالمثل الوطنية الخالصة، واللياقة البدنية، وقوة الشكيمة، وكان حسيب يعف عن الأمور التي كان يقبل عليها الشبان مثل النساء والخمر والدخان وما إليها.

بعد تخرجه من الجامعة الأمريكية، عاد حسيب إلى فلسطين والتحق بمكتب للهندسة في حيفا يملكه مهندس لبناني من خيرة الرجال يدعى أحمد فارس. فعامله أحسن معاملة، وصادقة، وأهله، ليصبح المدير المنفذ في شركة "اتحاد المقاولين"، وكان حسيب عند حسن الظن به، إذ قام بعمله خير قيام وحقق فيه نجاحا مرموقا، وأثبت للجميع مقدرته ومثابرته وإخلاصه في العمل، ومثالية أخلاقه.

وحسيب إنسان برغماتي، مقل في الكلام، كاره للزخرفة، ويؤمن بمبدأ ما قل ودل، وبان أقصر مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم، ولأنه يكره الإفاضة والاسترسال، فقد دَرب النفس على التقاط الفكرة التي تعرض عليه واستيعابها بسرعة مذهلة.

محطات في حياة حسيب صباغ

ولد حسيب صباغ عام 1920، وتخرج من المعهد العربي في القدس عام 1938، وحصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية من الجامعة الأمريكية ببيروت عام 1941.

ساعد في تأسيس شركة للمقاولين في حيفا عام 1945، نزح إلى لبنان خلال النكبة الفلسطينية عام 1948. عمل كمهندس في مشاريع مختلفة بما فيها مطار في طرابلس- لبنان عام 1950، كما عمل على إقامة مستودع لتخزين أنابيب الوقود لشركة النفط العراقية في حمص بسوريا.

عام 1951 أسس مع ابن خالد سعيد الخوري، وكمال عبد الرحمن شركة المقاولين المتحدة في بيروت عام 1952، وقد نقلت هذه الشركة مقرها إلى اليونان خلال الحرب الأهلية عام 1975. وقد أسهمت هذه

الشركة في بناء مصفاة وقود في عدن وقد تم اختياره كعضو في المجلس الوطني الفلسطيني، والمجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وقام بتوفير مئات المنح الدراسية للفلسطينيين واللبنانيين، كما قام ببناء وتأسيس مؤسسات خيرية كثيرة، منها مركز حسيب الصباغ للتميز في تكنولوجيا المعلومات في الجامعة العربية الأميركية في جنين، سكن حسيب الصباغ لطالبات جامعة فلسطين التقنية في طولكرم، ميدان حسيب الصباغ وسط مدينة طولكرم، مدرسة حسيب الصباغ في نابلس، مستشفى حسيب الصباغ قيد الإنشاء في رام الله، قاعة حسيب الصباغ في الجامعة الأميركية في بيروت، حديقة حسيب الصباغ في بيروت، مقعد حسيب الصباغ في جورج تاون، وحديقة حسيب الصباغ في ميناء طرابلس.

ومساهماته الكبيرة في الجامعات الفلسطينية: النجاح، وبيرزيت، وبيت لحم في الضفة الغربية - والإسلامية والوطنية في قطاع غزة. كما امتد سخاؤه إلى الولايات المتحدة بالتبرع للمؤسسات التعليمية وللرعاية الصحية. وقد حظيت جامعتا هارفرد وجورج تاون العريقتين بسخائه، فضلا عن معهد أمريكان انتربرايز وجامعة يوريكا في كاليفورنيا وكلية ويبر في فلوريدا، بالإضافة إلى مركز جيمي كارتر الذي يدعم حماية واحترام حقوق الإنسان ويكافح الفقر عالميا. غير أن دوره في العطاء لفلسطينيين مباشرة (أو من خلال "مؤسسة التعاون" أو مؤسسة "ديانا تماري صباغ") كان دورا رياديا جوهره: عطاء بلا حدود، وبلا تردد.

ويقول د. أسعد عبد الرحمن مدير "مؤسسة عبد الحميد شومان":

إنني عرفت حسيب صباغ (أبو سهيل) عن قرب: "إنه أكرم من عرفت فلسطينيا وعربيا."

عطاء بلا حدود

ساعد في تأسيس مؤسسة التعاون في جنيف عام 1982، وهو مؤسس مركز تعميق الحوار الإسلامي-المسيحي في جامعة جورج تاون في واشنطن وكان ذلك عام 1993. وساهم في تمويل مخصصات مقعد دراسي للشؤون الشرق أوسطية في مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك عام 1995 وفي عام 1999 تبرع بنفقات تأسيس مركز ديانا تماري صباغ لجامعة بيرزيت.

وقدم بعثة لجامعة هارفارد، وزمالة أستاذية في جامعة برنستون، وهو عضو فخري في مجلس أمناء جامعة المنار في طرابلس لبنان، ورئيس مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت عام 2001.

تقاعد بعد إصابته بجلطة دماغية عام 2002، ولكن ذلك لم يوقف تدفق عطائه، فقد استمر يدعم العديد من الأنشطة الخيرية ويدعم العديد من المؤسسات، وقد حاز على شهادة فخرية لانجازاته في أعماله التجارية من الجامعة الأمريكية بيروت عام 2003. وهو عضو في المجلس الاستشاري الوطني للجنة الأمريكية لشؤون القدس.

نشرت مؤسسة الشرق الأوسط سيرته الذاتية تحت عنوان "من لاجئ فلسطيني إلى مواطن عالمي عام 1996".

صورة من قريب

وصف باسل أمين عقل صديقه حسيب صباغ وصفا صادقا ينم عن خبرة وفهم وتواصل إنساني ووجداني رائع فقال:

وجهه يوحي بالراحة والطمأنينة، وذكاؤه حاد ومستنير، وهو دوما في سباق مع الزمن لأنه لا وقت لديه ليضيعه، كل شيء يجب أن يتم في حينه، إذ لا يجوز تأجيل عمل اليوم إلى الغد. وشعاره كن فيكون، فهو:

ينام بسرعة

ويأكل بسرعة

ويشرب بسرعة

ويقرر بسرعة

وإذا غضب صفح بسرعة.. عملا بنصيحة الحكماء. وهو لا يعرف الشكوى، ويتحمل الألم والبلوى، ولا يكتم سرا حتى لا يتهم بالكذب.

ولديه إرادة فولاذية، ولا يستسلم مهما تكررت العثرات وتوالت العقبات، وهو ينبذ المستحيل لإيمانه بالممكن ويؤمن بقول علي بن أبي طالب.. ويردده دائما وهو: "معايب المرء ثلاث البنت ولو مريم والدين ولو درهم وذل السؤال ولو أين الطريق".

أول الغيث قطرة

أمضى حسيب سنوات دراسته الثانوية بتفوق، ومن ثم أتم دراسته الجامعية، ونال شهادة الهندسة بنجاح وكان أول عمل قام به هو "بناء بعض المساكن" لبلدية حيفا. وكانت تلك البلدية- في ذلك الوقت مشتركة يهودية عربية، لها رئيس يهودي هو موشي ليفي ونائب رئيس عربي هو شحادة شلح.

وكان أجر المهندس حسيب صباغ ثلاثة آلاف جنيه فلسطيني، لم يتمكن من الحصول عليها في حينه بسبب تغير الأوضاع السياسية، ولكنه استردها بعد ذلك.. في مغامرة.. عبور الحدود.. والحصول على حقه كاملا. ومن ثم استغلال هذا المبلغ في مساعدة أبناء مدينته التي شردتهم أحداث النكبة.. ولعله ورث هذه الصلابة والقوة عن أمه.. فقد كانت أسرة صباغ من الأسر التي هاجرت إلى بيروت وبمساعدة بعض الأصدقاء استقرت الأسرة في شقة مستأجرة في رأس بيروت، ويذكر أن والدة حسيب صباغ رفضت أن تترك دارها وأرزاقها في صفد ولكن السلطات اليهودية نقلتها مرغمة إلى حيفا مع أمتعتها، فلجأت إلى غرفة في مدرسة الناصرة للبنات.

ونجح حسيب في الحصول على تعهد من الإدارة الانجليزية لإعمال إنشائية لـ"شركة تكرير البترول" في عدن، وقد خُصص له مبلغ خمسة ملايين جنيه إسترليني وكان هذا المبلغ في حينه مبلغا كبيرا.

وتمكن حسيب مع ابن خاله سعيد خوري، وصديق قديم من صفد هو كامل عبد الرحمن من تأسيس شركة سعت لإعطاء الفلسطينيين اللاجئين فرص عمل لكسب العيش، وسافر المئات منهم للعمل في عدن.

وفي خلال خمسة عشر شهرا انتهى العمل في عدن، وقد اشتهر اسم الشركة، وتعاقدت مع العديد من الشركات والمؤسسات على تعهدات في معظم بلاد الخليج، وبعدها في أقطار أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، ليصبح المهندس البسيط ابن صفد من كبار رجال الأعمال العالميين.

رفيقة العمر

وبفضل حكمة شقيقته سعاد وإصرارها، تقدّم حسيب إلى خطبة شابة مثقفة جميلة من أسرة تماري اليافوية الأرثوذكسية المعروفة فأنجب منها ثلاثة أولاد وابنة جميلة نالت الشهادات وأدارت أعمال والدها التجارية في أمريكا بكفاءة ونجاح.. واستطاع ولداه اجتياز الدراسة الجامعية بنجاح في جامعات أمريكية بواشنطن.

وطنيته وحضوره السياسي

وصف البطريرك مكسيموس الخامس حكيم حسيباً بأنه وطني مخلص، لم ينسَ أبدا أصله الفلسطيني وواجبه الأدبي والسياسي والمالي نحو وطنه أولا.

ويضيف البطريرك حكيم: معروف إخلاصه لرئيس المنظمة الفلسطينية ومساعديه الذين تربطهم به أحسن الصلات، وبالإضافة إلى ذلك فقد عُرف عنه إخلاصه لكل البلاد العربية التي يعمل فيها.

وكان دائم الاتصال بالقيادة السورية والتنسيق معها من أجل قضية وطنه. ولم ينسَ لبنان فساعده في محنته، وكان الناصح الأمين للرؤساء والمسؤولين فيه.

وله علاقات وثيقة مع الإدارة الأمريكية، ومعظم المسؤولين فيها، ما يجعله على علم أكيد بكل مجريات الأمور في العالم، وبذلك يأتي رأيه صائبا مفيدا عندما يعطيه.

رؤى الرئيس محمود عباس له

ويشهد الرئيس أبو مازن بأن حسيب صباغ لم يكتفِ بالبذل ليمسح الجراح، ويخفف المعاناة، ويقيل العثرات، ويدعم مسيرة العودة وقادتها، ولا يبخل من أجل بلوغ الأمل، وتحقيق الطموح وتجسيد الأمل ولم يرد الحقيقة مرة خائبة.. بل وضع كتفا مع أول الواضعين. ويضيف الرئيس أبو مازن في وصف وتقييم ابن بلده "صفد" فكلاهما من نفس المدينة:

إن حسيبا لم يكتف كما فعل الكثيرون ببذل بعض المال لإراحة النفس والضمير، بل وضع النفس والمال في خدمة الأمل، وتحقيق الرجاء، وكرس الوقت والجهد، وتعرض للخطر، وتصدى للمتاعب ولم يبالِ بما قد تؤول إليه الظروف والأحوال. فقد خاض غمار معركة ضارية، لا تكافؤ فيها بين القوى، ومع ذلك مضى بروح الفارس، وهو يؤمن بقدس الأقداس، ويثق بأن الهدف أسمى وأثمن، وانه يستحق التضحية بكل معاني وأشكال التضحية.

موقف .. ورجل وصديق

ويقول عنه باسل أمين عقل: مع أنه مهندس بالدراسة، ومقاول بالممارسة، ورئيس مجلس إدارة شركة تقوم بالإنشاء والتعمير، فإن السياسة في دمه، ولها المقام الأول في قائمة أولوياته، لأنه يقطر وطنية وحبا لوطنه وأمته. ومن مواقفه الوطنية أن مجلة "ميدل ايست انترناشيونال" البريطانية التي كانت تدافع عن الحق العربي كانت تمر بأزمة مالية خانقة وكانت بحاجة إلى مبلغ خمسة آلاف جنيه.. وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت ولم تكن ميزانية الجامعة العربية تسمح بصرف مثل هذا المبلغ.

يقول باسل أمين عقل: فلجأت إلى حسيب عند أول زيارة له إلى لندن، فكان تجاوبه فوريا ولكنه اشترط على أن لا أذكر اسمه.

حسيب يرتّب البيت الفلسطيني والعربي

في عام 1974 وحتى يظل مسيحيو لبنان خير سفراء للقضية الفلسطينية لدى الغرب المسيحي، فتح حسيب بيته، ومكتبه للقاءات بين القادة الفلسطينيين والقيادات المسيحية السياسية منها والدينية، وكان يتمتع بمصداقية لدى القوى المتصارعة، وذلك بحكم صلاته القوية والمتشعبة مع الجميع مما ساعده على القيام بدور الوساطة بين فرنجية وكرامي، وعرفات وفرنجية وعرفات والجميل، وعرفات وشمعون، وعرفات وسركيس وعرفات وسورية.

كان حسيب يرى أن على الفلسطينيين أن يكسبوا لبنان إلى جانبهم دائما.. لأنه فيه ميزتين دون غيره من البلاد العربية.. جبهة في الجنوب متاخمة لإسرائيل لضعضعة موقفها، وبلد حر مفتوح انطلقت منه فلسطين إعلاميا إلى جانب أرجاء العالم.

حسيب في البيت الأبيض

ومن الثابت تاريخيا أن حسيب صباغ كان في وقت من الأوقات القناة الفلسطينية الوحيدة القادرة على الوصول إلى صانع القرار الأمريكي في البيت الأبيض.

وقد أقام في وقت مبكر علاقة صداقة مع الرئيس جيمي كارتر. ويقول باسل عقل في معرض ذكرياته عن نشاطات وفعاليات حسيب صباغ وإخلاصه في العمل من أجل القضية الفلسطينية.

في مطلع شهر ابريل عام 1990 رتبنا حسيب وأنا لقاءً لأبي عمار مع جيمي كارتر في باريس، وكان الأول من نوعه. وكان كارتر قد عاد لتوه من زيارة لإسرائيل.

وتم اللقاء في جناح عرفات في فندق "فريون" وحضرته زوجة كارتر روزالين، وعبد المجيد شومان، ومنيب المصري، وهاني الحسن، وحسيب، وأنا.

وفي هذا الاجتماع.. عبر كل فريق عن مواقفه ورؤاه ولكن المواقف.. ظلت متباعدة لأن عرفات أعلن أنه لا يمكن التقدم خطوة نحو الحل ما لم تعترف إسرائيل بحق الفلسطينيين في إنشاء دولتهم المستقلة في الضفة الغربية وغزة.. الأمر الذي يراه كارتر مستحيلا، وكأن عرفات قد طلب منه تحقيق معجزة.

موقف لا أنساه

ومن معرفتي وصداقتي لحسيب صباغ رسمت له صورة أرجو أن لا ينظر إليها أحد على أنها صورة مثالية، فهي في الواقع صورة مستمدة من معارف وأصدقاء ورفاق حسيب صباغ وكل ما فعلته أنني اخترت ما أراه قريبا من شخصيته وأسلوبه وتفكيره.

ولا أنسى لحسيب موقفا هاما في حياتي. فقد كنت ذات يوم على خلاف مع الرئيس ياسر عرفات، ولم يستطع، بل لم يجرؤ أي صديق من أصدقائي، أو من معارف الرئيس وصفوته أن يتدخل لإصلاح ذات البين لأن أبو عمار له من الهيبة والشخصية والحضور ما يجعل التدخل غير مأمون العواقب. وحده حسيب صباغ تدخل دون علمي، لأنه كمواطن من الجليل يعرف أسرتي ووالدي ويعرف تاريخنا ولا يتردد في أن يقدم أياديه البيضاء لأسرة يكن لها الاحترام، وتم الصلح وعودة المياه إلى مجاريها من قبل الرئيس الراحل رحمه الله ومن قبل (أبو سهيل) طيب الله ثراه.

ومن أقواله الرائعة: "لا بلد يعادل فلسطين، والنجاح مفرح، ولكني سأموت بحسرة لأن شركتنا عمرت في ديار عربية كثيرة، ولكننا لم نتمكن من أن نعمر في وطننا بعض ما هدمه العدو الإسرائيلي ولم تتيسر لنا الفرصة كي نهزمه بكفاءاتنا وقدراتنا العلمية والعملية".

حسيب صباغ يرحل ولا يرحل

في يوم الثلاثاء الموافق 2010/1/13 رحل حسيب صباغ بعد صراع طويل مع المرض. وكما يقول عبد السلام موسى: قَدَر الكبار أن يرحلوا عن الدنيا، وأن تبقى بصماتهم مشعة في كل مكان، فـ"أبو سهيل" الذي صارع المرض إلى أن توقف قلبه عن النبض، كان مثالاً للإرادة الفلسطينية الصلبة، الذي تحول مع الوقت إلى "علم فلسطيني"، قوامه رجل أعمال تحلى بروح التحدي والإصرار على النجاح، قبل أن ينذر نفسه وماله في سبيل كرامة شعبه، وعدالة قضيته، التي كان "ضميرها" و"فارسها".

حمل "هموم فلسطين"، وطنه الأول، أينما حل، وكذلك "هموم لبنان"، وطنه الثاني، فكان سفيراً لكلا البلدين، عمل ما استطاع من أجلهما، مع الرئيس الراحل ياسر عرفات، والرئيس الشهيد رفيق الحريري، فأبدع في السياسة، كما أبدع في مجال الأعمال والاقتصاد.

(2012/9/14)

obeikandl.com

سعيد عياش

الوطن غالٍ والتضحية شرف والشهادة أمنية

لكن ليس هناك ما هو أشد قسوة وألماً ومرارة من فقدك لضناك

نشرت فلسطين الثورة نبأ استشهاده ليظهر بعد شهر ونصف في رأس العامود

تخلى عن التعليم المدرسي ودخل مدرسة السجن

ليصبح متخصصاً في الترجمة العبرية وثقافة الآخر

الأب والابن.. الثنائية الخالدة في سجل الثورة الفلسطينية.. الأب المقاتل والابن الشهيد

قلب الأم .. و"ظاهرة التلباسي"

من الأقوال الشعبية الحكيمة (قلب المؤمن دليله)، ومن هذه الأقوال أيضا ابن الموت فالح، وفي الحقيقة فإن السيدة سمر العبيدي والدة ميلاد تتمتع بحضور الحاسة السادسة التي تقوم على استقراء الغيب والشعور بالأحداث قبل أن تقع وهذا ما حدث معها بالنسبة لولدها فقد رأت وفاته قبل أن تحدث بكل تفاصيلها.

ولما كان ميلاد موضع حب ورعاية والدته بل كان الشاغل الهام في حياتها، فهو في سويداء قلبها وأمام ناظريها وموضع رعايتها ومن حواسها سواء أكان أمام ناظريها في البيت أو خارج البيت أو بين رفاقه في المدرسة، كان ميلاد دائما حاضرا في كل حواسها.

تقول أم الشهيد واللوعة تعصر فؤادها وتستنزف دموعها: قبل أسبوع من استشهاد ميلاد رأيت في المنام جنازة مسرعة حاملة تابوت فوقه ثلاث شجرات خضراء وأنا أركض وراءه وأنادي ميلاد، ميلاد. كان ذلك قبل أسبوع واحد من حدوث المصاب الجلل واستشهاد البطل. وبعد تلك الرؤيا انقلبت حياتي رأسا على عقب، فكانت مشاعر الحزن والألم تهاجمني في كل لحظة وأنا أعيش مرتبكة الأعصاب موزعة المشاعر يهاجمني القلب في كل لحظة وتتعرض حياتي ووجداني وفؤادي إلى نوبات من الشجن والألم والدموع.

في اليوم الذي وقع فيه الحدث الخطير كنت أتابع تفاصيل حياة ميلاد واتصل به في كل لحظة كما كان يتصل به خاله زياد العبيدي وأخته وعد، وكنا في تواصل مستمر في ذلك اليوم الذي يوافق الذكرى السنوية الثالثة والستين لحدوث النكبة. وقبيل استشهاده كنا نتصل به ونطمئن عليه مرة بعد أخرى. وفي

تمام الساعة الثالثة عصرا تلقى أخي اتصال من زوجي.. وبمجرد سماعي أنه قال (أهلا سعيد)، صرخت وقلت ميلاد استشهد.. ميلاد استشهد، فأغلق أخي الهاتف وقال لي بابتسامة خفيفة أن ميلاد مصاب برصاصة مطاطية، لكني أكدت له أنه استشهد ورويت له الحلم. وأسرعنا جميعا إلى المستشفى وما أن رأته عيناي والابتسامة تعلو محياه ومسحة من الرضا والنور تكسو ملامح وجهه، مسكت يده وأحسست بأنه تكلم معي وأخبرني أنه شهيد. تساءلت بيني وبين نفسي: هل هذا حقيقة أم حلم؟

وبعد أن استعادت وعيها ظلت لفترة طويلة غير مصدقة أنها فقدت ميلاد. فقد كانت تتحرك وتأكل وتشرب وتمارس حياتها على أنه أمام ناظريها وبين أفراد أسرتها وقد نشرت صوره في كل مكان في البيت وعاشت وتحركت وتعاملت على أن ميلاد لا يزال حيا يرزق لغاية هذه اللحظة .

إن هذه الظاهرة الغريبة العجيبة التي ترى الأحداث بتفاصيلها وجزئياتها قبل وقوعها لا تتأتى ولا تتوفر إلا في نفر من الناس يمتازون بالشفافية والنقاء والطهارة والإحساس الشديد بالخطر وبمن حولهم وهذه الصفات تجسدت في أم الشهيد قبل أن تفقده وبأسبوع كامل، ورغم حرصها الشديد على أن تشمل ولدها بالعناية والرعاية والسؤال المتواصل ومتابعة كل تحركاته في كل مكان، كل ذلك لم يؤخر وقوع القضاء والقدر كما رأته في رؤيتها قبل أسبوع بالتمام والكمال.

والحقيقة أن لي اهتمامات شديدة بهذا الموضوع وأنا أتابعه في المجالات العلمية الغربية والعربية على السواء وقد لاحظت أن الجامعات في مختلف أنحاء العالم تكرس دراسات لهذه الظاهرة التي تسمى التلباسي، والتي نقرأ عنها في سيرة عمر بن الخطاب عندما كان في المدينة يخطب وفجأة صاح بصوت عالٍ مخاطبا قائد الجيوش الإسلامية في الشام قائلا "الجبل الجبل"، أي أن عمر رأى وهو في المدينة ما يحدث في المعركة في الشام فوجه نداءه إلى القائد عبر ما يعرف بالتلباس أو بالحاسة السادسة أو بالرؤيا.

وليس لي إلا أن أتوجه بملء مشاعري وأشجاني إلى العزيزة أختي سمر لتكفكف دموعها ولتعلم أن القضاء والقدر أقوى من كل حذر. ولي أن أغبطها على هذه الموهبة الإلهية وعلى رؤيتها أن ميلاد لا يزال حي يرزق لان الروح عند ربه، فهكذا تلقينا الثقافة النضالية والإيمان القوي بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وبكل الكتب السماوية الموت غير موجود ولكن توجد حياة أبدية.

تواصل النضال الثوري بين الآباء والبنين

ظاهرة التواصل النضالي في الثورة الفلسطينية ظاهرة تستحق الدراسة والاهتمام.. فكثيرا ما سلم الآباء الراية إلى الأبناء.. فمضوا على درب النضال، واستشهدوا في نفس الخندق ولنفس الأهداف.

هذه الظاهرة الفريدة تتجلى بكل أبعادها.. وظلالها في سعيد، وميلاد عياش.. الأب المناضل الذي أمضى عشر سنوات من حياته في السجون والشبل.. الذي قضى شهيدا، وهو دون السابعة عشرة من عمره.

ليس ذلك فحسب..

بل إن في الأسرة.. أكثر من مناضل، وأكثر من فارس.. فخال الفتى ميلاد، أمضى في سجون الاحتلال أكثر من أربعة وعشرين عاما. قدر بعض الأسر، أن يكون النضال والمعاناة والاعتقالات والدموع والأشجان زاد حياتها، وقدر بعض الهامشيين أن يمضوا في الحياة كأن لم يكونوا.

وكان حاضراً هذه المرة أيضاً

في مكتب سعيد عياش الصغير.. كانت تحلق روح ميلاد.. صوره.. وحكاياته.. ومسيرته.. وحضوره كان طاغيا.. كان يسيطر على كل مشاعر وحواس والده.

لحق ميلاد بالرفيق الأعلى يوم 2011/5/14 في مواجهة مع قوات الاحتلال..

تلقى الرصاص من على مسافات قصيرة، ومن ثم صعدت روحه إلى بارئها، شهيدا على ثرى القدس.

ومنذ ذلك اليوم لا يفارق طيفه رؤى والده، الذي يقول:

الوطن غالٍ والشهادة أمنية، والنضال من أجل الوطن رسالة خالدة، وحق مقدس.

ولكن..

ليس هناك ما هو أقسى وأمر من ألم الفراق..

إن طيف ميلاد معي، في كل يوم وفي كل ساعة، وفي كل جلسة، وفي كل مناسبة.

أي عذاب يمزق أضلعي، وصدري، عندما أتقدم لأعانقه واحتضنه فأجده مجرد طيف، أي ألم وأي حزن وأي غصة تجتاح كياني، عندما أفتقده بين إخوته وأصدقائه ورفاقه.. فلا أجده.

وردة في حديقة الخالدين

كان ميلاد.. أقرب إنسان إلى قلبي، أشعر بأنه صديقي، قبل أن يكون ولدي، وذلك لأن "وشائج الرجولة والنضال والثورة.. كانت كالكيمياء تربط بين روحينا".

لم يكن قد جاوز السابعة عشرة يوم استشهاده لكنه كان في سلوكه وتصرفاته وقراراته، أكبر من سنه.

كانت شخصيته خلاصة.. لمن كان يؤمن بهم.. ويريد أن يقتفي أثرهم ويسير على هواهم.

* تشي جيفارا
* غسان كنفاني
* أبو على مصطفى
* ناجي العلي
* أبو جهاد
* وخاله البطل الأسير.

كان ميلاد يستقي من روح هؤلاء المناضلين الأبطال مسيرته وسلوكه، وكان أكبر من الخوف، والتراجع، والرصاص، والموت. يقول الأخ سعيد:

عذرا سيدتي..

لا أستطيع أن ألملم شتات نفسي، وأجمع أفكاري، وأركز كل حواسي وذهني لأحدثك عن مشوار حياتي، لأن "ميلاد" يستحوذ على كل أقطار نفسي، ويشغل كل ذرة من كياني، وعندما يكون حديث الساعة قضايا النضال واستحضار مآسي وبطولات شعبنا، فإن ميلاد يملأ الأفق أمام عيني.. وأحس به متدفقا، منتشرا، منتشيا، متحدثا، فياضا، يفرد أجنحته ليحتضن كل من حوله وما حوله.

على أطراف القدس في بواكير النضال

ولد سعيد علي عيسى عياش في سلوان- القدس يوم 1954/6/19، وكان والده يعمل في البناء وعاش 104 سنوات فهو من المعمرين الفلسطينيين، وقد عمل لفترة طويلة في نقل البرتقال من يافا إلى القدس (على الحمار) فهو يعرف بلاد الشام شبرا شبرا.

وأنا أصغر أولاده، فقد أنجب ثمانية، أربع بنات وأربعة أولاد.

في المرحلة الابتدائية والإعدادية درست في مدرسة سلوان في رأس العامود وكانت تسمى مدرسة الشهيد عبد القادر الحسيني. وعندما جاء الاحتلال تغير اسمها فأصبحت مدرسة سلوان الإعدادية للذكور.

في أثناء دراستي في هذه المرحلة كانت حركة القوميين العرب تجتاح الأوساط الوطنية وكانت سلوان مهدا لحركة القوميين العرب. ومن هنا تأثرت بالأستاذ رشاد الزغير، والأستاذ موسى الغول، والأستاذ أحمد داود عياش، كان ثلاثتهم من دعاة الفكر القومي الوطني وعلى يديهم تشربت مبادئ الوطنية وحب الوطن والانتماء.

أما مدير المدرسة فكان الأستاذ عوض حمدان وهو وطني غيور من الطراز الأول. أضف إلى ذلك الشيخ عمر قراعين فله بصمات واضحة على الجيل الذي أنتمي إليه.

أما في المرحلة الثانوية فقد التحقت بدار الأيتام الإسلامية في شارع الواد لفترة ثم انتقلت إلى المعهد العربي في أبو ديس الذي تحول الآن إلى جامعة القدس وكان مدير المدرسة في تلك الفترة الأستاذ توفيق أبو السعود.

ومن ذكرياتي عن تلك الفترة أن الصف الذي كنت فيه في مدرسة الشهيد عبد القادر الحسيني كان يقع في الطابق الثالث وفي أسفله خنادق ومواقع للجيش الأردني ومن وحي هذه اللوحة كان الأستاذ رشاد الزعير يرتجل البيت الآتي:

"قل للذي اتخذ السلام شريعة
لا يرجع المغصوب إلا المدفعُ"

وكان بروحه وخفة ظله يشير إلى المواقع المهدمة أسفل المدرسة قائلا: "ولكن ليس هذا المدفع".

ومن المعلمين الذين أذكرهم في تلك الفترة ممن أثروا في جيلي من الناحية الوطنية والتربوية والقومية الشيخ الجليل ياسين البكري الذي كان مناضلا مع عبد القادر الحسيني.

ولا زلت أذكر الأستاذ الشاعر الصحافي فوزي البكري الذي التحق بالتدريس بعد عام 1967 وعُرف في الأوساط الصحافية والأدبية بجرأته وسخريته وشجاعته وكان يطلق عليه لقب صعلوك القدس.

ولم تتح لي الظروف إتمام الدراسة الثانوية فتركت المدرسة وعملت في مجال التمديدات الكهربائية، وأذكر فترة الدراسة الثانوية بأنها كانت حافلة بالنشاطات القومية والوطنية، فقد كانت المدارس ولعلها لا تزال المنطلق للمظاهرات الوطنية والاحتجاجات ومقاومة العدو والتصدي للتعبير عن الأحداث السياسية الساخنة مثل معركة الكرامة.

البحث عن بندقية

في عام 1975 تم اعتقالي وحكم علي بالسجن في إسرائيل ضمن مجموعة فدائية تنتمي إلى حركة التحرير الوطني "فتح". كان عمري لا يزال دون العشرين عاما عندما سافرت إلى العراق عام 1974 وهناك

اتصلت بالأوساط النضالية الفلسطينية والتقيت بمناضلين من سلوان ومن مختلف الأقطار العربية، فقد كان العراق منطلقا قوميا للقضية الفلسطينية.

وفي عام 1974 اخترت طريقي وقررت أن أقاوم الاحتلال بشكل عفوي، وذلك مع صديق لي هو عصام جندل من سكان رأس العامود حيث كنا نعمل معا في التمديدات الكهربائية. وكان عصام جندل قد اعتقل في العام 1986 وحكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة مقاومة الاحتلال وقد أمضى من محكوميته مدة 26 عاما إلى أن أفرج عنه في صفقة مبادلة الجندي جلعاد شاليط.

كانت مقاومة شعبية بسيطة مكونة مني ومن صديقي ضد التواجد الإسرائيلي وضد مظاهر الاستيطان الذي بدأ مبكرا في منطقة سلوان.وفي الواقع كانت الأعمال التي نقوم بها أنا وصديقي عفوية نخطط لها وننفذها بدون تردد.

حريق المقهى

كنت ألاحظ أنا وصديقي جندل أن هناك مقهى مشبوها في المنطقة وأن كثيرا من ضباط المخابرات والعملاء يترددون عليها، وكنا على ثقة بأن كل من اعتقلوا كانوا ضحية لرواد هذا المقهى من أفراد مخابرات العدو. ولذلك قررنا أن نحرق المقهى وبالفعل قمنا بذلك ويومها كتبت منشورا ووقعته باسم جبهة النضال الشعبي الفلسطيني بالقدس، كتبت المنشور بخط يدي ووقعته ومن ثم ثبته على حائط المقهى بيدي.

ثم قررنا أنا وصديقي أن نطور نضالنا ونلجأ إلى استخدام المولوتوف. وبعد ذلك التقينا بصديق آخر هو تحسين داود صبيح من سكان رأس العامود، وكان قد سافر إلى العراق ونجح في الانضمام إلى إحدى التنظيمات. وعندما تقابلنا عرض علينا أن نذهب إلى لبنان بغرض الانضمام إلى الثورة في بيروت. وعندما سافرت وإياه إلى بيروت أخذت أتردد على التنظيمات وعلى المكاتب وعندما رأيت الأسلحة انبهرت بها وأدركت أن الكلاشينكوف هو الوسيلة الأمثل لمقاومة الاحتلال وأن المولوتوف وعود الكبريت لن تجدي.

توجهت مع صديقي تحسين صبيح إلى بيروت عام 1975 في شهر 7 أو 8 وهناك ذهبنا إلى مكتب فتح في كورنيش المزرعة حيث كانت هناك قيادة القطاع الغربي وكان المسؤول هو مصطفى عيس (أبو فراس).

التخطيط لعملية عسكرية جريئة

عندما التقينا بأبي فراس تم تنظيمنا بسهولة وذلك لأن أبو فراس كان يعرف كل أقاربي وكل أصدقائي بحكم زمالته لأحد أقاربي الذين عمل معهم في وكالة الغوث.

وكانت وجهة نظر أبو فراس أننا يجب أن نعود بعد التدريب والتأهيل إلى الداخل لان المقاومة الحقيقية يجب أن تكون من أعمال الوطن ومن مدنه وقراه وليس من الخارج. وقال أبو فراس إن عمل تنظيم واحد من الداخل يفوق عشرة أعمال مما نفعله نحن من الخارج.

وبعد فترة تم تدريبنا بصورة مكثفة وكان هناك قرار أن أذهب أنا وصديقي تحسين وشاب ثالث يدعى أحمد حجازي وكُلفنا بان نتوجه في عملية عسكرية إلى جنوب لبنان. وفي ليلة 3- 1975/8/4 حاولنا اقتحام إحدى المستوطنات عبر حدود لبنان مع فلسطين المحتلة ولكن فوجئنا قبل أن ندخل بأنوار الكشافات تسلط علينا وبالنار تفتح علينا من كل جهة وكنت أنا قد عبرت جزءا من الأسلاك الشائكة.

كانت العملية التي كلفنا بأن نقوم بها تعتبر عملية انتحارية (دوريات انتحارية) بمعنى أن كل من اشترك فيها إما قتل وإما تم اعتقاله.

وكانت مجموعة الحماية التي رافقتنا دون المستوى، فما أن فُتحت النار علينا وسُلطت علينا الأضواء حتى انسحبت مجموعة الحماية وتركتنا لمصيرنا.

وعلى أثر هذا الحادث أصبت أنا بجراح ووقعت في الأسر ولم أكن أعلم عن تحسين رفيقي وعن الشاب السوري اليافع أحمد حجازي الذي كان في السابعة عشرة من عمره.

وقد صدر عن العدو الإسرائيلي بيان جاء فيه أن عملية فدائية على الحدود اللبنانية قد انتهت بمقتل واحد من المناضلين وأسر اثنين، وعُرف من البيان أن الشخص الذي قتل هو (ياسر علي) وهذا هو اسمي الحركي، وعلى أثر ذلك نشرت (فلسطين الثورة) نبأ استشهادي واصفة إياي بالبطل الشهيد وعلى الأثر أقام أهل سلوان بيت عزاء للشهيد وتلقوا فيه التعازي.

وبعد شهر ونصف حملتنا سلطات الاحتلال إلى المناطق التي نشأنا فيها لغرض التصوير والتوثيق، وهكذا وجدت نفسي بعد شهر ونصف في رأس العامود وأنا بملابس رثة وحالة صحية مزرية، ولكن الناس عرفوني وتسابقوا إلى أهلي يبشرونهم بأنني لا أزال على قيد الحياة.

في جامعة السجن

أمضيت في السجن عشر سنوات، كرست كل لحظة فيها لتثقيف نفسي ولتعلم اللغة العبرية وإتقانها بهدف معرفة حقيقة العدو الذي نحاربه، أي أن معرفة الآخر وفهم طبيعته وجوهره وطريقة تفكيره هي السبيل الأفضل والأمثل للتصدي له ومحاربته.

وللحق فإنني أحببت اللغة العبرية بقدر ما كرهت العدوان والظلم، وهذا الحب انعكس على قدراتي وإتقاني للترجمة، فقد أصبحت قادرا على الترجمة من وإلى العبرية بكفاءة عالية. ولما أُفرج عني في صفقة أحمد جبريل التي شملت الإفراج عن 1150 معتقل فلسطيني مقابل اثنين من الجنود. في حين أن عدد الجنود الذين تم أسرهم كانوا ثمانية جنود، استولت عناصر أحمد جبريل على اثنين منهم وفاوضوا على هذا الأساس وبالشروط السابق ذكرها، أما الجنود الإسرائيليين الستة الآخرين فقد تم الإفراج عنهم مقابل الإفراج عن جميع المعتقلين في معسكر أنصار بجنوب لبنان بالإضافة إلى 63 معتقل فلسطيني .

النضال الثقافي والفكري

يقول أبو المجد: يهمني أن أذكر أنني أكرس كل جهدي لترجمة الكتب والمؤلفات الفكرية والعقائدية والتاريخية الهامة إلى اللغة العربية وأحرص على أن تكون في غاية الدقة وأن تحتل مكانة هامة في المكتبات العربية والعالمية. وقد ترجمت في هذا المجال، ضمن عملي في المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) العديد من الكتب ومنها: "النضال الشرقي" لـ د. سامي شالوم شطريت، وكتاب "اختراع الشعب اليهودي" للمؤرخ البروفيسور شلومو زاند وكتاب "في مصيدة الخط الأخضر" للبروفيسور يهودا شنهاف.

والحقيقة أنني معني كل العناية بأن أزود القارئ والمثقف العربي بمعرفة "الآخر" وبالشأن الإسرائيلي عموما وأعتبر ذلك رسالة لا تقل أهمية عن رسالتي يوم حملت الرشاش وتقدمت إلى جبهات القتال. علما

بأني أمضيت في ساحة الترجمة سنوات طويلة في خدمة الصحف العربية والمجالات والمؤسسات الإعلامية ومنها المكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية في القدس.

ذاك الشبل من ذاك الأسد .. ميلاد سعيد علي عياش على خطى أبيه

كان طيف "ميلاد" حاضرا يملأ جو المكتب الصغير.. صوره في كل مكان.. وشخصيته الثائرة.. وروحه البريئة.. وقدسية ذكراه تملأ المكان شذا وعطرا وبطولة وشجنا ودمعا يكاد يطل من عيني والده.

كل ما في حياة سعيد مصيري وهام وحيوي ووثائقي يسجل بحياد وموضوعية مسيرة إنسان.. وتاريخ شعب، ومسيرة ثورة. فالتفاصيل الصغيرة التي مرت في حياة هذا المناضل، تشكل فصولا حاسمة، واضحة، صادقة، شفافة لكل ما جرى لكل فلسطيني عاش مأساة الصراع، واكتوى بنيران القهر والعدوان.

ولكن.. استشهاد ميلاد، وحياته، وتاريخه يعمق إحساس والده وفجيعته، ويترك بصمات مؤلمة من الجراح والألم على كل حياة مناضل اختار منذ صباه الباكر.. وبملء إرادته، وبعفوية مذهلة، أن يقاوم، وأن يكون ندا، وان يدافع عن أرض سلوان وتاريخها وأبنائها، وشعبها كباقي أقرانه.

ميلاد أخلاقيات وسمات

كان ميلاد في حياته فتىً مرحا، لا تفارق الابتسامة محياه، وكان مؤدبا خجولا، محبوبا لدى كل من عرفه. يحب مساعدة الناس، ويتسم بالشهامة والروح القيادية والشجاعة. وكان دائما من بين إخوته يتصدى لأية مهمة أو عمل يحتاج إلى الجرأة والمبادرة، لم يكن يتردد أو يهاب، لم يكن يخشى من أي شيء، وكان مليئا بالحيوية والحماس الدائبين. وكان يحب القدس ويعشق بلدته سلوان، وكان يحب عائلته وحارته وأصدقاءه، وكان يكرس كل جوارحه للحب والمودة والتواصل مع الناس.. لم يكن يغض الطرف عن أي إساءة، ولم يكن يتمرد، إلا إذا أحس بأن هناك ظلما يلحق به أو بمن يحبهم.

أنموذج للفتى الفلسطيني الواعد

أحب ميلاد الطبيعة والبحر بشغف، وكان هاويا بارعا في صيد السمك، وكثيرا ما كان يرافق والده وأصدقاءه إلى ميناء يافا للسباحة والصيد، وكان محبا لتربية الحيوانات الأليفة.

وكان إحساسه الأسري وانتماؤه عاليا جدا، ففي العطلات المدرسية، كان ينخرط في أي عمل يدوي حتى لو كان يحتاج إلى مشقة بدنية، وتعب جسدي، وخشونة، يتحمل كل ذلك بصبر وثبات، منطلقا من روح التحدي ورغبة منه في إظهار قوة عزيمته وإرادته الصادقة في أن يخفف عن كاهل والده بعض المصاريف.

بذور الانتماء والوطنية

تأثر ميلاد كثيرا بقضية سجن خاله (جهاد أحمد مصطفى عبيدي) الذي أمضى حتى ذلك الوقت أكثر من أربعة وعشرين عاما في السجن، ولم يتمكن من زيارته سوى بضع مرات، في طفولته لأن السلطات تمنع زيارة السجناء والأسرى، ما عدا الأقارب من الدرجة الأولى كالأب والأم، والأخ والأخت والزوجة فقط.

وقد تركت قصة نضال خاله وسيرته، كمقاوم وبطل مناضل عنيد، أثرا كبيرا في رسم ميلاد لطريقة حياته. وعندما كانت والدته تنهاه عن الاشتراك في المظاهرات، وإلقاء الحجارة على دوريات الاحتلال والمستوطنين، كان يُذكّرها بسيرة شقيقها جهاد خاله الأسير. فتصمت الوالدة وتنظر إليه بعينين حائرتين يلوح فيهما بريق الدموع ولا تنطق ببنت شفه.

وعندما هبت نسائم الربيع العربي

كان ميلاد يطمئننا دائما وهو يقول:

- لا تخافوا.

- لا تقلقوا.

غير أننا كنا نقرأ في عينيه، ونظراته تصميما وتحديا وتحفزا، وحماسة غير مألوفة، وازداد كل ذلك بتأثير ما يشهده العالم العربي من ثورات جماهيرية تحمل بشائر الربيع ونسمات الحرية على مشارف سنة 2010 و 2011.

يقول أبو المجد:

وكأي والدين يخافان على أولادهما ويعتريهما القلق على مصيرهم، حاولنا أنا ووالدته سمر طوال الوقت أن نخفف من اندفاع ميلاد وحماسته وأن نبين له، أن قضية فلسطين والتحرر من الاحتلال، بحاجة إلى جهد جماعي، وإلى عمل وكفاح جماهيري لا فردي فقط، وأن الانتفاضة الثالثة بحاجة إلى ظروف ملائمة، وتحرك جماهيري واسع، والى وسائل نضالية تختلف عن الانتفاضتين الأولى والثانية.

وكان ميلاد دائما يردد عبارته التقليدية:

- لا تخافوا.

- لا تقلقوا.

مولد ثائر.. براعم الثورة وجذورها

ولد ميلاد في اليوم السابع والعشرين من شهر آب عام 1993، في بلدة سلوان المقدسية، وعندما بلغ السادسة من عمره أرسله والداه إلى روضة (السالزيان) ومن ثم انضم إلى أخيه مجد للدراسة في مدرسة المطران حيث درس فيها حتى الصف التاسع.

وعندما تخرج أخوه مجد رفضت إدارة المدرسة إعطاءه شهاداته بسبب عدم تسديد الأقساط المتراكمة على الولدين مجد وميلاد.

ومن ثم تمت أغرب مساومة في تاريخ التربية والتعليم، وتقضي هذه المساومة بإخراج ميلاد من المدرسة ونقله إلى مدرسة أخرى، وتسديد جزء من الأقساط.

وهكذا انتقل ميلاد من مدرسة المطران إلى المدرسة الرشيدية، ولا شك أن ذلك ترك أثرا عميقا في نفسه حيث حُرم من زمالة وصداقة أبناء صفه وانتقل إلى جو جديد ومدرسة جديدة لمجرد أن أخيه لم يسدد الإقساط لإدارة المدرسة. ولكن ميلاد واصل دراسته وأنهى الصفين العاشر والحادي عشر في المدرسة الرشيدية، ليلتحق بعد ذلك بمدرسة سخنين الصناعية في (عطروت).

يقول والده وهو يغالب طيف الدموع في عينيه: كان ميلاد قبل استشهاده يترقب الحصول على شهادة إنهاء المرحلة الثانوية، ويستعد للالتحاق بإحدى الكليات لدراسة علم الحاسوب، ولكن رصاص الغدر اغتاله وحرمه من هذه اللحظة بل وحتى من تسلم شهادته.

ولا يزال الحلم الفلسطيني يافعاً

ولا يزال الحلم الفلسطيني نضرا، منقوشا على القلوب بخيوط ذهبية منذ عقود، ومهما تلاطمت الأمواج ومهما علا المد، فإن بوصلتنا كانت دائما تشير إلى القدس.

كان ميلاد ميلاداً للحق والحرية والشهادة، سقطت سنبلتنا في رأس العامود، لكنها أنبتت سنابل كثيرة يافعة ويانعة تحيط بالقدس سياجا وتحمل الراية.

كان ميلاد يؤمن أن الحق ينتزع ولا يستجدى، كان يؤمن أن اليد الرقيقة قادرة على أن تناطح المخرز وأن الصدر النحيل قادر على أن يتحدى البندقية، وأن الأنامل الرقيقة قادرة على أن تقاوم المخالب، وأن الصدور العارية قادرة على أن تقف في مواجهة الكراهية والعنصرية.

كتب إبراهيم صرصور يقول:

"لم أعرف ميلاد شخصيا لكني يوم استشهاده في الذكرى الثالثة والستين للنكبة، شعرت أنه بعض مني، وقطعة من فؤادي، لم أستغرب جرأته وشجاعته في مواجهة جيش الاحتلال وشرطته، بصدره العاري ويديه المجردتين من أي سلاح.

علمته أمه فلسطين فن التضحية، وعلمته أمه وأبوه الأسير المحرر الذي قضى عشر سنوات .

ولكن واقع الاحتلال في القدس والظلم وممارسات الاحتلال والشرطة، واستفزازات المستوطنين والمواجهات اليومية المستمرة في سلوان، كل ذلك ترك أثرا بالغا في ميلاد وتفكيره وإختياره لطريقه.

كان يملأ غرفته بصور تشي جيفارا ورسومات ناجي العلي وحنظلة، وصور الشهداء غسان كنفاني، وأبو علي مصطفى، وأبو جهاد. وكان يردد دائما مقولة:

"لا تمت قبل أن تكون نِدا"

"ونموت واقفين ولن نركع"

"الحرية أو الموت"

كان ميلاد من المناضلين المؤمنين بعدالة القضية الفلسطينية ووجوب التضحية من أجل حرية الوطن.

ميلاد أحب الطفولة فخاطر بها، وأحب سلوان فقدم روحه لها، عشق الأقصى فدفن بجواره، أحب الحرية فاستشهد من أجلها.

ميلاد الذي لم يرَ من الحياة سوى صوت الجلاد، ورصاصه يخترق أجساد شباب فلسطين.

جدلية الصراع والنصر

غادرنا ميلاد الشاب في لحظة تاريخية، يتفجر فيها الغضب العربي.. أنظمة سقطت، وأخرى تترنح، الأمر الذي يضع الأمة على أبواب مرحلة تاريخية جديدة.

إن جدلية الصراع بين التقدم والتخلف، بين الوحدة والانقسام، بين الحرية والتبعية، بين التسلط والديمقراطية تشتد وتتعاظم، وان حتمية انتصار الشعوب قادمة لا محالة، الأمر الذي سيكون له انعكاسات مباشرة على الصراع الصهيوني مع الأمة العربية وعلى القضية الفلسطينية.

مُناضل في عمر الورود .. المعنى والرمز

إن استشهاد ميلاد عياش وهو في السابعة عشرة من عمره، له دلالة وطنية وإنسانية وتاريخية هامة، فهو يعني أن الكفاح موصول وأن التضحية مستمرة، وأن معطيات الثورة لا تزال تخفق في القلوب والصدور، وأن أمتنا قادرة على العطاء.

يقول حاتم عبد القادر:

سقطت أوراق الخريف باكرا وارتحل النهار مسرعا، وازداد ليلنا حلكة، الأشياء غير الأشياء، لكن المكان هو المكان، شاخت الوجوه لكن الحلم لا يزال يافعا نضرا. في هذا اليوم العظيم من أيامنا الخالدة نقف أمام ظاهرة رائعة عندما تقدم سلوان شهيدها البطل ورقة خضراء أُسقطت قبل أوانها، طالته رصاصات القدر الحاقدة وهو في ريعان شبابه لتؤكد أن فلسطين قادرة دائما على أن تقدم المزيد من الأبطال والشهداء.

وكتب خال الشهيد جهاد عبيدي من سجنه يقول:

ميلاد هو ميلاد فجر جديد، بيديه انتزع حريته، وآمن بالمقولة: (إما أن نموت عظماء فوق الأرض، وإما أن نموت عظاما في جوفها).

كنت معكم عندما استشهد ميلاد.

كنا سويا نحفر الأرض لنزرع في حقل الورود وردة جديدة، وكان ميلاد اللهيب الذي أشعل ثورة العائدين على حدود الوطن راسمة برموزها معالم الحرية الفلسطينية لتزهو بألوان علمها وبنغمات معزوفة الوطن.

(2012/9/21)

obeikandl.com

نبهان خريشة

"أعطيت للوطن كل شيء ولا يزال عيشي الكفاف والحمد الله"

في أول اعتقال تعرض له فقد عينه اليسرى

وهو لا يزال طالباً في السنة الأولى في الجامعة الأردنية

مراسل لإذاعة "سوا" الأمريكية عشر سنوات بمهنيّة عالية وانتماء للحق والشفافية

من أعماق السجون ومن مدرجات الجامعة خرجت كوكبة من المناضلين الليبراليين

ممن وضعوا الدستور الذي تؤمن به قيادات العمل الفلسطيني

في روما. أنا في روما، كنت قد خرجت من الإقامة الجبرية المفروضة عليّ في المنزل لمدة أربعة شهور من قبل الحاكم العسكري، لم أستطع الخروج من البيت المحاصر بالجيش الإسرائيلي، ولكن كان مسموحا لي أن استقبل الزوار، وأصبح البيت ملتقى لشخصيات عالمية إسرائيلية وفلسطينية، وهنا كان الهم الأكبر لنا في طرحنا مع زوارنا، هو هم الوطن الكبير والصغير، الاعتقالات، نسف البيوت، الإبعاد، التعذيب في السجون الإسرائيلية، كان يوميا يدور في بيتي نقاشات وحوارات، قضايا تهم مصيرنا ووجودنا، الأصدقاء من المحامين المدافعين عن السجناء، كانوا يأتون لنا بأخبار السجون والتعذيب وحياة الجحيم في الزنازين، كان من هؤلاء الأصدقاء: المحامي حنا نقارة، المحامية فيليتسيا لانغر التي تتلمذت علي يد حنا نقارة محامي الأرض، المحامي علي رافع، كذلك هو تلميذ حنا نقارة، وليد الفاهوم، ليئا تسيمل، وعبد الرحمن الزعبي. كان همنا التحرك لتنظيم الاعتصام، والاحتجاج، والمؤتمرات الصحافية، والعرائض، لكي يرفع الاحتلال سوطه، من على رقبة المناضلين في أقبية السجون، عندما وصلت مع نمر حماد أن أشارك معه ومع أبو اللطف في ندوة في البرلمان الإيطالي إلى روما بعد الخروج من الوطن السجين والإقامة الجبرية.

كانت أول شخصية نقابلها من منظمة التحرير الفلسطينية، هو ممثل المنظمة بإيطاليا نمر حماد، أردنا زوجي وأنا أن يكون لقاؤنا مع ممثل منظمة التحرير، ليكون مسئولا عن ابنتي ديانا التي أتينا بها لكي تدرس الطب بإيطاليا، رغم المغامرة بوضع ديانا على اتصال مع نمر حماد، حيث كان ممنوعا منعا باتا الاتصال بالمنظمة، طلب مني نمر حماد أن أشارك معه ومع أبو اللطف في ندوة عن القضية الفلسطينية، في البرلمان الإيطالي، وفعلا قبلت رغم الحظر من أي اتصال مع منظمة التحرير يعني السجن، قال لي نمر بدبلوماسيته وبهدوئه المعهود: فليكن سجن. ستخدمي القضية، عليكِ أن تكوني شاهدة على التاريخ وأمام البرلمان والنواب والمؤتمر الدولي. الكل يعرفك الآن من البرنامج، الذي بثه التلفزيون الإيطالي، لوبرانو المخرج

المعروف. وأنت في الإقامة الجبرية مقابلة التلفزيون كانت هائلة من وراء الأسوار العالية لبيتك وبعيد عن أعين الجيش الذي كان أمام البيت بأسلحته، وأنت تصرخين: هذه هي الديمقراطية. قبلت أن آتي مع نمر إلى البرلمان الإيطالي، كانت هذه العملية هي عملية انتحار، صاح زوجي: هذه بمثابة عملية انتحار لكل العائلة. لم يخطر في بالي أن هذا اليوم سيكون اليوم الذي تتوج به كل نضالات الإخوة المساجين ومعاناتهم، وعندما كنت أتهيأ للذهاب إلى المؤتمر، كانت التهديدات قد وصلت إلى مكتب المنظمة من الموساد، تهديدات طول النهار، ولكن لماذا كان هذا اليوم الذي أطلقت صحيفة "التايمز" اللندنية، أهم تقرير في التاريخ المعاصر، التقرير الذي كان بمثابة قنبلة زعزعت العالم الحر الذي يؤمن بإسرائيل وديمقراطيتها، التعذيب في السجون الإسرائيلية، التقرير كان قنبلة ذرية أو أكثر هزت العالم، وارتبكت إسرائيل عشر سنوات كانت نتيجة هذه الدراسة من توثيق ومقابلات، كنا محبطين ونحن نناضل من أجل حقوق المساجين وضد التعذيب وصوت المحامين وصراخهم وصوت الاحتجاجات، وآلام المساجين وعذابهم، كل هذا كان انتصارا للحق.

موقف "الصانداي تايمز" كان موقفا مشرفا للصحافة البريطانية ولأول مرة التحقيق المشرف هذا تسجله الضمائر البريطانية. تتألف المقالة الشهيرة التي صدرت في شهر يونيو 1977 من شهادات لسجناء سياسيين فلسطينيين، وأقسى أنواع التعذيب والقتل داخل السجون، هذه المذكرة كانت تجربة 44 سجينا وسجينة، قد نفذت من محلات بيع الجريدة.

اسم نهان خريشة كان له مكانة متصدرة في المقال، وكانت القصة مؤثرة جدا، وكيف عذب وفقد عينه بالتعذيب، وقصة رسمية عودة واغتصابها وإجبارها على الاعتراف بما يودون معرفته وإن لم يكن قد حدث منها، وأمورا أخرى.

الجريدة فقدت من الأسواق لا نعرف من سحبها، ولكن كنا قد سمعنا عن التقرير بكل وسائل الإعلام العالمية وكان عند الجامعة العربية نسخة وفي مكتب المنظمة نسخة، كنت أعرف كل هذه المعاناة لنهان من وليد الفاهوم وفيليتسيا لانغر والمحامين، وعن رسمية عودة من السجينات اللواتي كن معها في السجن ومنهن، الهام أبو غزالة وخولة عبد الهادي اللائي كن يقصصن علينا هذه القصص من المعاناة، كلمتي كانت عن التعذيب وتأكيد ما قالته "التايمز" في ذلك اليوم، كان الوضع ملتهبا ومتأزما من سماع النشرة القاسية والمقززة للتعذيب، ولوسائل الاغتصاب لجريدة "التايمز" في ذلك اليوم، وبإعطاء شهادتي التي سُئلت عنها من قبل راميرو لافالي رئيس البرلمان. كانت شهادتي عن نهان ورفاقه وعن رسمية عودة و شهادة 44 شخصية في السجن كانت على صفحات الصحف في كل العالم كانت آلامهم ومأساتهم، تنتقل إلى كل وسائل الإعلام العالمية، من اليابان إلى الصين إلى افريقيا، وأمريكا، وأوروبا.

وعندما رجعت إلى الوطن اعتقلوني لمدة 45 يوما في سجن المسكوبية، كان المحقق يقول لي قصة رسمية عودة كاذبة، وقصة نهان خريشة كاذبة.

وهكذا عرفت نهان المناضل المقاتل الشرس الذي عنده موهبة الخطابة والإقناع والتأثير بالكلمة، واللغة الانجليزية والعبرية الراقية، وكنت أرى التأثير على وجوه الذين يتحدث إليهم عن تجربته وتجربة رفاقه، وأنا اليوم أُعجب عندما يقولون لنا لا يوجد قيادة لديكم لأخذ المبادرة وتكملة المسيرة، ولا يوجد عندكم قياديين وزعامة.

وكما تنطبق الأمثال التي نطقت بها ضمائر الشعوب لتوائم حال البشر، فالمثل العربي القائل (لا كرامة لنبي في وطنه) ينطبق بكل معانيه على هذا الرجل الفلسطيني الجسور، ولن تموت إنجازات ومواقف من هم بقيمة نهان خريشة مهما حاول البعض طمس الحقائق أو تغيير الوقائع خدمة للموالين لهم أو تغييبا لمن هم أعلى قيمة وعطاءً للوطن منهم.

بانوراما نهان خريشة

هناك ظاهرة ثقافية ونضالية هامة يمكن رصدها من خلال دراسة العديد من الشخصيات الفلسطينية الهامة، هذه الظاهرة تؤكد أن رموز الثورة الفلسطينية، وحاملي لواءها، والعناصر الفاعلة في إدارتها.. هم من طلائع الرواد والمثقفين، ممن تفوقوا في المجالات الأكاديمية والعلمية والفكرية والثقافية.

وقد عرضتُ لنماذج عديدة منهم عبد الجواد صالح، وفؤاد شحادة، وغازي حنانيا، وغابي برامكي وعدنان سمارة وغيرهم.

وفي مسيرة نهان خريشة تبدو هذه الحقيقة شديدة الوضوح، حيث تفوق نهان في الدراسة الثانوية، وكان ترتيبه التاسع في شهادة الثانوية العامة على الضفتين، فلما التحق بالجامعة الأردنية لدراسة اللغة الانجليزية تم اعتقاله، ليفقد عينه اليسرى وهو تحت عذاب التحقيق، الذي استمر تسعين يوما.

ولكنه ما كاد يدخل السجن، حتى أمضى خمس سنوات في دراسة وتعلم اللغة العبرية والروسية، ودرس التراث الروائي الروسي، وأهم الكتب والمراجع العالمية، بما فيها القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى، بالإضافة إلى رأس المال لكارل ماركس، وأصل الأنواع لدارون وغيرها من أمهات الكتب الثقافيّة والفكريّة.

كما درس نهان في الجامعة الأمريكية؛ وحصل على درجة الماجستير.. وها هو يواصل دراسته في الدكتوراه في تخصص دقيق هو الأديان المقارنة: اليهودية والنصرانية والوثنية قبل الإسلام.

نهان خريشة يجسد هذه الحقيقة البسيطة الواضحة.. وهي أنَّ النخبة المثقفة هي التي تحمل راية الريادة وتتقدم الصفوف.. وبقدر ما لدى هذه النخبة من الصفاء والشفافية والإخلاص؛ بقدر ما يكون حظها من الانتصار والتقدم، والاقتراب من حلم الدولة وتحرير الأرض وقطف ثمار الحرية.

بواكير الانتماء

كان ترتيب نهان الثالث بين خمسة إخوة.. وترك شقيقه رياض في نفسه أثراً بالغاً.. فقد كان من أوائل من شعروا بجراح وآلام ونكبات الشعب الفلسطيني في شتى المواقع والبلاد والفيافي والأوطان. أنشأ رياض خريشة مؤسسة "جمعية العون الطبي للفلسطينيين في لندن "MAP"، وكانت مهمتها تقديم المساعدة للفلسطينيين المحاصرين في لبنان سنة 76، ومساعدة "أمل" وأهالي صبرا وشاتيلا.. وتقديم يد العون والمساعدة للفلسطينيين في حصار تل الزعتر.

هذه المهمة الإنسانية السامية، القائمة على الحس الوطني الرفيع، والانتماء الإنساني والأخلاقي، هي السمة الغالبة على شخصية وفكر وسلوك نهان، وقد تجلت في سلوك أخيه، الذي قضى نحبه وهو في الرابعة والأربعين.

ببساطة شديدة، وبأسلوب واضح، وكلمات صادقة يتحدث نهان عن شقيقه "رياض": "إنه لا يفتعل، ولا يتشنج، ولا يضغط على مخارج الحروف ولا ينتقي عباراته".

يتدفق بسهولة ويسر وعفوية.. كأنما الإخلاص للوطن والموت في سبيله والعمل من أجل تضميد جراحه وكفكفة دموع أبنائه أمر بديهي، ورسالة يجب أن يؤديها كل إنسان.

والحيوية والتدفق والحماس لا تزال مفردات واضحة ترسم خطوط وملامح شخصية صديقي نهان خريشة. فهو لا يعمل في مؤسسة صحفية أو إعلامية واحدة. إن طاقاته وقدراته وحماسته ومثابرته تمتد في عدة مشاريع، أو عناوين إعلامية في آن واحد، سواء أكانت صحافة مقروءة أو مسموعة أو مشاهدة.

إنه بصدق.. وموضوعية مؤسسة إعلامية قائمة بذاتها. يلتف حوله طلابه وأصدقاؤه وزملاؤه فيعاملهم بروح الأب والمعلم القدير. الذي ينقل أمصال حماسه وإخلاصه وتدفقه إلى كل من حوله.. وهو متحرر من مشاعر الإحباط والألم والظلم.. فالابتسامة لا تفارق شفتيه، وتعليقاته ومفرداته ولغته كلها متفائلة مرحة تنشر في الجو روح التفاؤل والانتصار. وهذه سمات العظماء من القادة والمربين والرواد.

النضال الإعلامي مفتاح شخصيته

شريط حياة نهان خريشة يمتد طولا وعرضا وعمقا في الإعلام، فهو يعشق الكلمة.ويحب فن الإعلام بكل مستجداته ومفرداته، ويبدع في الابتكار مُدرسا. ومذيعا ومخرجا وموجها ومعدا للتقارير أو مراسلا لتغطية الأحداث.

وعندما حاولت أن أقف على محطات معينة في تاريخ حياته لأستنطقها. وأعتصرها. وآخذ منها ذلك الشذا الرائع الذي أحاول أن أنشره عبر سطور هذه الباقات.. لم أتمكن. لأن حياته سلسلة من المواقف النضالية التي تدور بطريقة أو بأخرى حول النضال الإعلامي القائم على التوعية. وتحريض الجماهير من خلال مفردات الإعلام المختلفة، لتقاوم الاحتلال وتكون نداً في معركتها من أجل الحرية ومن أجل تقرير المصير.

التفوق.. المنطلق والحافز

ولد نهان بكر "محمد سعيد" خريشة سنة 1954 في محافظة طولكرم في قرية "ذنّابة"، وكان والده يعمل مزارعا شأن آلاف الفلاحين الفلسطينيين الذين يعشقون الأرض. يعطونها عرقهم وكدهم فَتُغِلُ لهم ما يعول أسرهم ويسر لأولادهم الاندفاع في سلك التعليم والدراسة.

وقد أمضى نهان دراسته الابتدائية في مدرسة ذنّابة حتى الصف السادس، ثم التحق بمدرسة طولكرم الإعدادية لإنهاء المرحلة الإعدادية، ومن ثم التحق بالمدرسة "الفاضلية" الثانوية، وهي من أهم مدارس فلسطين في تلك الفترة لإنهاء دراسته الثانوية.

وعندما تقدم نهان لامتحان التوجيهي سنة 1972 كان ترتيبه التاسع على الضفتين ما أهله للحصول على بعثة دراسية في الجامعة الأردنية لدراسة الأدب الانجليزي.

السطر الأول في قاموس الاعتقال

وسافر نهان بالفعل إلى عمان، والتحق بالجامعة وما كاد يمضي الفصل الأول. حتى عاد إلى طولكرم، وكان ذلك في 1973/12/13 حيث تم اعتقاله على جسر دامية، وكان ذلك هو السطر الأول في قاموس الاعتقال الذي عاشه نهان.

كان فتىً غضاً.. لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.. طالبا جامعيا في السنة الأولى.. في الفصل الدراسي الأول.. يأخذه جنود الشيطان.. ليعتقلوه.

ومن المعروف أن الاحتلال في تلك الحقبة كان شديد الوطأة، قاسيا في غير رحمة، عنيفا دون هوادة أو لين، كان يبطش بيد من حديد بهدف إجهاض أي حركة ثورية أو نضالية.، وكانت فترة التحقيق هي أصعب ما يمر به المعتقلون من الشباب..، وقد استمر نهان تحت كابوس التحقيق طوال تسعين يوما.. فقد فيها عينه اليسرى وتعرض لنزيف قوي استنزف قواه وطاقاته وأسلمه إلى حالة أقرب ما تكون إلى الموت.

قبضة حديدية .. وإرادة ثورية

يقول نهان: حكمت بالسجن خمس سنوات، ولكني لم أحزن، لم أبكِ ولم أتراجع أو أندم. أو أتخاذل.. إن لدى الإنسان العادي طاقات قوية، وإرادات عجيبة وقوى كامنة، يستطيع أن يستخرجها في الأوقات الملائمة.

وهذا ما حدث لي.. وجدت نفسي ثابتاً صامداً، متماسكا، إنهم يريدون تدميري، ولكني لن أستجيب، سأكون عصيّاً على الكسر، سأعرف كيف أنتصر على الظلم والقهر والإحباط واليأس.. وسأجعل من الزمن عنصرا مقبولا يمضي في يُسر وسلاسة في ظل العمل والنضال والتصميم والإرادة.

اختراق المحظورات الثقافية

في بدايات الاحتلال، كانت الممارسات القمعية العنصرية اللاإنسانية في ذروتها، فكانت الأوراق والكتب والأقلام من المحرمات، ولكننا كنا نُهرِّب الأقلام بكل الأساليب الممكنة، ونستعمل أغطية كاسات اللبن للكتابة. كانت سلطات الاحتلال تكشر عن أنيابها السامة لقمع الثورة الوليدة، وكانت تعرف خطورة الكلمة وأهميتها ودورها في الحياة والثورة.

ورغم كل شيء فقد ازدهرت الحركة الثقافية والفكرية في السجن، فكانت في أوجها وعفويتها وعافيتها، رغم كل مفردات الحصار، كان هناك شعاع من الثقافة والفكر والأمل يضيء ليل الزنازين، ويبعث الأمل في نفوس المعتقلين ويؤكد لهم بأنهم يتقدمون إلى الإمام.

يقول الأستاذ نهان خريشة،: لقد حققنا العديد من المطالب في السجن، عبر الإضرابات المختلفة عن الطعام، وعن طريق تحدي إدارة السجن، وكانت المواجهات دموية عنيفة بين من يملك السلاح والقوة، وبين أبطال عُزل، لا يملكون إلا الإرادة الحرة.

وقد استشهد لنا إخوة ورفاق عبر هذه المواجهات، ولم يكن ذلك يفت في عضدنا، بل كان يزيدنا إصرارا.

أنت قوي .. أقوى من سجانك

إن الإيمان بقضية وموقف يؤجج شرارة الثورة في النفس، ويشعل طاقات التحدي والإرادة، وإن إصرارك على أن تكون أقوى من سجانك يجعلك تشعر بالسمو والنبل والقوة.. لا أريد أن أقول أنك ستغدو نبيّا أو مُصلحا أو قدسيا، ولكني ببساطة أؤكد أن قواك الأخلاقية والإنسانية والنضالية تصبح مستفزة وحاضرة للتصدي والعناد والرغبة في كسر غطرسة الباغي الظالم المستبد الذي يلقي بك في أعماق السجون لمجرد انك تطالب بحقك في الحرية.

ذلك شعور ينتاب كل إنسان صادق مع نفسه ومشاعره، ليست هذه فلسفة أو استعراض أو نرجسية فكرية.. إنما هي حقيقة مشاعر كل مناضل ثوريّ آمن بوطنه وقضيته، ومضى على الدرب يدفع الثمن.. بكل شجاعة وصدق.

جامعة السجن .. ثقافة بلا حدود

في هذه الفترة من حياتي.. تعلمت اللغة العبرية إلى حد الإتقان، وتعلمت اللغة الروسية، وزادت معرفتي وثقافتي باللغة الانجليزية واستمرت هذه الفترة من عام 1974، حتى عام 1977. وكانت قراءاتي جادة عميقة تعتمد على الدراسة والتحليل، والمناقشة، قرأت وتعمقت في القرآن الكريم، كما قرأت أمهات الكتب في الأدب الروسي.. رأس المال لماركس وأصل الأنواع لدارون وجميع روايات الأدب الروسي كاملة. مكسيم جوركي، وديستوفسكي، وتشيخوف وتوليستوي وتورغنيف وكتب الأدباء السوفييت الجدد في الأربعينيات والخمسينيات. ومعظم هذه الكتب كنت أقرأها بلغتها الأصلية. ما يحقق المتعة والفائدة والسمو. كما أني قرأت كل ما له علاقة بتاريخ الثورة الفلسطينية، وتاريخ القضية الفلسطينية. وتعمقت في مفاهيم وواقع القومية العربية والاشتراكية. وكانت جميع الكتب تصلنا بسهولة ويسر إلا مجموعة ضئيلة..كانت ممنوعة لأسباب أمنية مزعومة.

صداقة الكتب وصداقة الرفاق

كانت صداقة الكتب صداقة أثيرة محببة، ورفقة طيبة حميمة.ولكن. صداقة الإخوة المناضلين. كانت زادا عاطفيا وفكريا وإنسانيا نبيلا.. يعوضنا عن الأهل والأقارب، ولا زلت أذكر أولئك الشهداء الأبرار من أصدقائي ورفاق دربي.. فمنهم من قضى، ومنهم من ينتظر، ومن هؤلاء:

الشهيد عيسى شماسنة، والشهيد قدورة موسى، والأخ الصديق عدنان ضميري، والأخ الكبير حسن أبو لبدة، ومروان البرغوثي، وسمير صبيحات، وغسان الخطيب، وبسام الصالحي، والدكتور سليمان الشيخ رئيس قسم الفيزياء النووية في جامعة القدس في أبو ديس، وغيرهم.

العودة إلى مدرجات الجامعة

قضيت خمس سنوات في سجون الاحتلال، وبعد الإفراج عني عام 1977 التحقت مجددا بجامعة بيرزيت، واحتسبت فترة دراستي في الجامعة الأردنية بنصف عام.. أي ست عشرة ساعة دراسية، وتخصصت في دراسات الشرق الأوسط والاقتصاد. كانت جامعة بيرزيت في تلك الفترة أنموذجا رائعا للجامعة الوليدة، الرائدة، عدد الطلاب قليل، والمناهج قوية ومركزة ومكثفة ومختارة بدقة وعناية، والهيئات التدريسية ممتازة. كانت جامعة بيرزيت في تلك الفترة من أفضل جامعات الشرق الأوسط، وفي

هذه البيئة الثقافية الفكرية النظيفة. كنت نشيطا سياسيا وتم انتخابي رئيسا للجنة العمل التطوعي، كما انتخبت كعضو مجلس طلبة سنة 1978.

وكان المجلس في تلك الفترة يتكون من خمسة طلاب، وأذكر أن هذا المجلس هو الذي وضع الدستور الذي تسير عليه الجامعة حتى اليوم، ولذلك سمي بمجلس الدستور.

وتقوم فلسفة ذلك الدستور على أن يكون المجلس مكونا من عدد أكبر من الطلاب لتتسع القاعدة الطلابية، كما أنّ صوت المجلس، وتوجهاته وقراراته مسموعة لدى إدارة الجامعة وسياستها، كنا نعمل بشكل ليبرالي، صادق محايد، على أن يكون بإمكانك ان تنتقد وتعبر عن رأيك.. وتبرز وجهة نظرك.. دون أن تواجه بالقوة.. ودون أن تَلجأ أنت إلى القوة.

الرواد من جامعة بيرزيت

بهذه المفاهيم، وبهذه الروح، وبوحي فلسفة القوة والتحدي والثبات "روح بيرزيت" على حد تعبير الدكتور غابي برامكي تخرج القادة في الساحة السياسية اليوم ممن يحتلون مراكز هامة في المؤسسات المختلفة والشركات والوزارات ومنهم على سبيل المثال:

غسان الخطيب

محمد اشتيه

بسام الصالحي .. وآخرون.

وما كدت أتخرج من الجامعة حتى انطلقت إلى العمل الإعلامي الذي يسري في دمي. فاشتغلت في جريدة الفجر المقدسية كمحرر للأخبار.، وكان رئيس تحريرها يوم ذاك الصحافي الغزي المعروف محمد زكي آل رضوان.

حصار الإقامة الجبرية

ثم فرضت عليّ الإقامة الجبرية لمدة خمس سنوات في محل إقامتي في بلدة ذنّابة، ولكن ذلك لم يمنعني من مواصلة نشاطاتي في الكتابة الصحافية والنضال التنظيمي ضد الاحتلال.

لقد حاولت سلطات الاحتلال القمعية إبعادي عن الأجواء الثقافية والأصدقاء والرفاق في القدس ورام الله، ولكن ذلك لم يَحُل بيني وبين الانطلاق إلى آفاق العمل الإعلامي حيث عملت في تلك الفترة مع مكتب القدس للخدمات الصحفية. ولعلك تذكرين أن تلك الفترة في نهاية عقد السبعينيات ومطلع الثمانينيات كانت من أخصب المراحل النضالية واستمرت هذه الفترة بكل مقوماتها ونشاطاتها، لتكون المخاض الذي سبق الانتفاضة الأولى في ديسمبر عام 1987.

وقبل أن تنطلق شرارة الانتفاضة اعتبرتني السلطات العسكرية الإسرائيلية من أكبر المحرضين ضد الاحتلال وأودعت السجن الإداري لمدة ثلاثة أشهر في سجن جنيد في نابلس، ورافقت في هذا الاعتقال كوكبة من الأخوة المناضلين ومنهم:

مروان البرغوثي، وسمير صبيحات.

وفي معتقل النقب

بعد أن أمضيت ثلاثة أشهر، تم إطلاق سراحي، ولكن ما أن مر أربعون يوما، حتى تم اعتقالي إداريا، مجددا في معتقل أنصار في النقب وكان ذلك في 1988/10/10 وأمضيت هناك ستة أشهر. وتم الإفراج عني في مطالع عام 1989، وكانت ابنتي نور قد ولدت، ولا تزال رضيعة في حضن أمها.

انطلاقة إعلامية

بعد خروجي من سجن الاعتقال الإداري، انطلقت للعمل الإعلامي عبر عدة عناوين ومواقع وهي:

- الإذاعة الأمريكية A. B. C .
- صحيفة واشنطن بوست.
- مجلة الحياة اللندنية.
- المكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية في القدس.
- وسائل الإعلام المحلية.

وتضاءل نشاطي السياسي.. فقد ركزت على العمل الإعلامي، واتصل بي فيصل الحسيني لأكون عضوا في اللجان التي شكلها ما قبل أوسلو.

وفي تلك الفترة قمنا بتجربة إعلامية هامة، حيث توليت الإشراف على أول نشرة إخبارية تلفزيونية في دائرة مغلقة في مسرح الحكواتي، وكانت هذه التجربة النواة الأولى لتأسيس هيئة الإذاعة والتلفزيون الحالية.

السفر إلى أمريكا طلباً للعلم

في عام 1994 غادرت الوطن متوجها إلى الولايات المتحدة الأمريكية في بعثة دراسية لدراسة أخبار الإذاعة والتلفزيون وذلك في جامعة سيراكيوز بنيويورك، وأمضيت هناك سنتين حصلت بعدها على درجة الماجستير، وأنا الآن أحضر للدكتوراه في جامعة محمد الخامس بالرباط، في موضوع اليهودية والمسيحية في جزيرة العرب قبل الإسلام.

عودة إلى أحضان الجامعة الأم

والتحقت بعد ذلك بالعمل في جامعة بيرزيت كمدير لمركز الموارد الإعلامية، بهدف تدريب الصحفيين والإعلاميين الفلسطينيين في كيفية الحصول على الأخبار وتحريرها، عبر قنوات التقنيات الحديثة.

وأمضيت في هذا العمل أربع سنوات، وأستطيع أن أقول بكل تواضع أننا استطعنا خلال السنوات 98/97/96 أن نمحو أميّة 40 في المائة من الصحفيين الفلسطينيين في المجال الإلكتروني، وخاصة التعامل مع الإنترنت.

وفي إذاعة سوا

أما كيف عملت في إذاعة "سوا"، كمراسل لمدة عشر سنوات، فلذلك قصة، وهي أنهم اتصلوا بي وعملوا لي تجربة كاختبار وتم التسجيل، كما قدمت تقريرا، ومن ثم تعاقدوا معي لأكون مراسلا لإذاعة "سوا" في رام الله.

ومحطة سوا.. إذاعة متخصصة في البث للعالم العربي، مثلها في ذلك مثل إذاعة لندن، الـ بي.بي.سي وإذاعة مونت كارلو التي تبث من باريس.

وواصلت في كل هذه السنوات رسالتي في خدمة الإعلام كمدرس لمادة الإعلام المتعلق بصحافة الإنترنت لمدة عشر سنوات في جامعة بيرزيت.

صحافة الغد .. المسموعة والمشاهدة

أما كيف أصبحت مؤهلا لتدريس هذا النوع من الصحافة الذي يغزو العالم اليوم، فيتلخص في أني كنت عاشقا للإنترنت، وكنت على معرفة جيدة بكل تفاصيل هذا النوع من الخدمات الإعلامية، وقد اطلعت على العديد من الكتب والمقالات التي تعالج هذا الموضوع، وشاركت في العديد من المؤتمرات الأكاديمية وبالخبرة والتجربة والدراسة والممارسة، أصبحت مؤهلا وقادرا على تدريس هذه المادة الهامة الحديثة والتي وإن كانت لا تلغي الصحافة الورقية إلا أنها تشكل مصدرا هاما وحيويا عالميّا للمعرفة الإعلامية والفكرية والتعليمية. بل إنها تشكل مصدرا هاماً وثرياً لإمداد الشبكات والمواقع ومختلف المفردات المتعلقة بالانترنت بسيل من المعلومات والمواد.

ولا يزال العرض مستمراً

ولا يزال الصديق الإعلامي النشيط نهان خريشة يعمل في هذا الحقل إذ يدير في رام الله "شركة مسج للإعلام" حيث تقدم استشارات إعلامية، وتساعد في تنظيم دورات تدريبية، ومحاضرات وخبرات في الإنتاج التلفزيوني، وإنتاج إعلانات تلفزيونية وكل ما يتعلق بالإعلام.

وبعد..

أخي نهان..

لا زلت أذكرك.. كواحد من أهم وأنشط الشباب الجامعي الذي التحق بالعمل معي في مكتب القدس للخدمات الصحفية، وعندما كنت أراك لم أكن أستطع أن أمنع نفسي وأضبط مشاعري وأحاسيسي، وأنا أعلم أي جريمة منكرة اقترفها الطغاة في حقك، بعد أن فقدت إحدى عينيك.

ولكني عندما كنت أسمعك، وأتعامل معك، وأرى نشاطك وحيويتك، وقدرتك على اجتياز محنتك الشخصية، أتعلم منك، معنى ساميا من معاني الحب والتضحية والثبات على المبدأ.

حقيقة.. إنك تمثل أنموذجاً رائعاً للإنسان الفلسطيني الوطني الثائر.. الذي يعمل بصمت.. ومثابرة وإخلاص.. ولا يرى في كل ما يقدمه إلا رسالة الواجب بكل ما فيها من وفاء وإخلاص وصدق مع النفس قبل الصدق مع الآخرين.

لست في الميدان وحدك

لقد كنا نقوم بعمل إعلامي متكامل، عمل محفوف بالمخاطر والتعرض للاعتقال والحجز والمطاردة والسجن والتعذيب، وكان اعتقال أي زميل لنا أو سجنه أو تعذيبه يزيدنا إصرارا على مواصلة الطريق على درب النضال.

ودعني أستذكر من خلالك رفاقك البررة الذين تم اعتقالهم وهم يناضلون في الساحة الإعلامية.. فقد تعرض للاعتقال رضوان أبو عياش، والمتوكل طه، ومحمد عميرة، ونعيم الطوباسي، وزهير الدبعي، وإبراهيم سجدية، وقدورة موسى، وعلي الصح، والسيدة ناهد نزال، والمحامي الوحيدي من غزة، وأكاد أقول: "إن الاعتقال قد طال أكثر من اثنين وعشرين صحافيا ممن عملوا في مكتب القدس للخدمات الصحفية ومجلة العودة.

ولكنك كنت الوحيد الذي اعتقل وخرج

بأرفع وسام

وأغلى وسام

وأعظم وسام

عندما فقدت عينك اليسرى وأنت في ريعان الشباب، أخذوا نور عينك ولكنهم لم يأخذوا نور بصيرتك التي سجلت أروع المواقف وأشجعها وأنبلها.

دروس ومنارات

إن التعمق في حياة الإعلامي نهان خريشة تجعلنا نقف أمام نقاط إشعاع وتفوق تشكل دروسا ومنارات للأجيال، ومن ذلك أن أبناء الفلاحين القرويين البسطاء هم الذين خرجوا إلى آفاق العمل الريادي الثوري، بل إن هؤلاء هم الذين انتزعوا علم القيادة والريادة وكانوا في الطليعة، ويشهد بذلك أن نهان خريشة نبت في تربة قرية ذنّابة في طولكرم.

كما أن مسيرة نهان خريشة تؤكد أن النبوغ المبكر يدفع الإنسان السوي إلى الانخراط في العمل السياسي لان ذكاء المرء محسوب عليه، ومنذ فجر صباه انتظم نهان في العمل النضالي بعد أن حصل على بعثة دراسية كانت كفيلة بأن تثنيه عن عالم النضال المحفوف بالخطر والمغامرة والاعتقال بل والرصاص والموت.

وفي مسيرة فارسنا اليوم نتوقف عند ظاهرة التواضع وإنكار الذات دون تحميل الوطن أو الحركة الوطنية أي نوع من المنِة، لان الواجب يحتم أن يقدم الإنسان روحه لوطنه.

ويل لمن يجفو ترابا ضمهُ

حب المواطن عُدّ في الإيمان

وفي مسيرة نهان نقطة مضيئة تحتاج إلى كثير من الحكمة والشجاعة وهي اقتحامه لإذاعة أمريكية أنشئت أساسا لخدمة السياسة الأمريكية المعادية بالبداهة للخط الثوري الفلسطيني، ولكن نهان استطاع بحكمته وحسن خبرته أن يحافظ على الخط الوطني الذي يؤمن به في أخباره وتقاريره وكل ما كان يقدمه على امتداد عشر سنوات فكان بالفعل صوتا فلسطينيا نقيا وسط هذه الإذاعة الأمريكية.

في المكتب الفلسطيني في خضم الأحداث والمتغيرات

وأسجل بفخر واعتزاز انضمام نهان إلى أسرة المكتب الفلسطيني في فترة الذروة النضالية التي امتدت من أواسط السبعينيات حتى مشارف التسعينيات، فكان وجوده تعزيزا للسياسة التي كنا ننتهجها في تلك

المرحلة وهي استقطاب كل المواهب الصحافية والإعلامية أينما ظهرت.. وفي هذه الفترة انضم إلينا الشاعر أحمد عبد أحمد، والفنان سليمان منصور، والصحافي إبراهيم دعيبس، وعلي قعدان، وجواد الجعبري، والمتوكل طه، وعزت الغزاوي، والشاعر علي الصح، وعلي قعدان.

وأسجل هنا ظاهرة هامة يمكن أن نستشفها من مسيرة نهان خريشة.. وهي انكبابه على الثقافة العبرية في فترة اعتقاله التي امتدت لأكثر من خمس سنوات وهذه ظاهرة لافتة للنظر. فرب ضارة نافعة، وقد عرضنا لنماذج من مناضلين البواسل الذين أتقنوا العبرية في المعتقلات ومنهم عطا القيمري، وسعيد عياش، وأخيرا وليس آخرا نهان خريشة.

(2012/9/28)

obeikandl.com

obeikandl.com

المحامي نضال طه

الدفاع عن الأرض قضية حياتي

تصديت لمافيا الأراضي وتعرضت لمحاولة اغتيال مُرعبة

حاولت أن أسير على خطى ناجي العلي وكان قدري القانون وساحات المحاكم

أصارع حق القوة بقوة الحق

هتف موكلي العجوز: كيف أقابل وجه خالقي بتهمة بيع أرضي..

وبكى الرجل بدموع تفتت الصخر

محامي الأرض وخليفة المحامي حنا نقارة فكأن التاريخ يعيد نفسه

كان علينا الدفاع عن ضحايا البيوعات التي تتم بالغش والاحتيال والتزوير

فإذا نجحوا في اغتيال واحد منا.. وجدوا مكانه عشرة

نضال طه، فنان مثقف، محارب بطبيعته، مسكون بالفن والثقافة والأدب والنقد والرسم الكاريكاتيري، والفن التشكيلي، طموح، تضج في عروقه الرغبة في التفوق وتحقيق الذات، كان يخطط لكي يكون مهندس ديكور ولكنه ضل طريقه إلى كلية الحقوق ليتخرج محاميا، يعشق المحاماة، ويرى فيها منبرا وخندقا للنضال القومي والإنساني والوطني.

عرفته منذ عقود مضت، شاب هادئ وديع، شديد الأناقة، مظهره وشكله يوحيان بأنه فنان.. ألفاظه واهتماماته تنم عن إنسان وطني ملتزم وكان دائم التردد على بيتنا والمساهمة في الحوار الثقافي والسياسي والنضالي والإعلامي الذي شهدته سنوات السبعينيات والثمانينيات، ومن هؤلاء كريم خلف، إبراهيم الطويل، بشير البرغوثي، عادل سمارة، مروان البرغوثي، سمير صبيحات، جميل الطريفي، محمد البطراوي، وإلياس فريج، د. البير أغازريان وغيرهم.

وكان هؤلاء يشكلون صفوة القادة السياسيين، والإعلاميين، والمفكرين من اليمين واليسار والمستقلين، يترددون على بيتي، وتنعقد حلقات الدراسة والمناقشة بجدية، وحماس، دون تعصب، أو إقليمية أو عنصرية، وكانت رموز اليسار واليمين الفلسطيني حاضرة، وكانت بعض الأقلام اليسارية الإسرائيلية تشارك

في هذه المناقشات، وكان نضال مشاركا فاعلا، في كل هذه الأمسيات التي كانت تمتد إلى ساعات متأخرة من الليل. كان يناقش دائما بمنطق المحامي وحماسة الشباب الوطني الغيور.

الأستاذ نضال طه زاهد تماما في الحديث عن الجانب الذاتي من شخصيته، وهو لا يرى أي داع للخوض في التفاصيل الدقيقة لحياته ونشأته وتعليمه، ومن ثم تخرجه ولكنه، بصورة شعورية، أو لا شعورية تحدث عن الفنان الساكن في أعماقه.

لمسات طموح في ضمير المستقبل

يقول الأستاذ نضال طه:

منذ طفولتي الباكرة، وأنا أشعر أن هناك طفلاً يسكن في أعماقي، محب للفن بكل صوره وألوانه، بالقصة والرواية والمسرحية، وبالشعر والنقد والفن التشكيلي. هل أقول إني قرأت بعد ذلك روائع الأدب العالمي،توليستوي، ديستوفسكي، واميل زولا، وسيمون دي بفوار ،وألبير كامو، وألبيرتو مورافيا، وسارتر، وتشيكوف، وتشارلز دكنز ،ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس وغيرهم؟

وهل أتذكر رسومات ناجي العلي ومتابعة لوحاته ورسوماته اليومية التي كانت تجعلني أقرأ الجريدة بالعكس، أي من الصفحة الأخيرة إلى الأولى.

كان الفن حبي وزادي ومتعتي، وكنت أخطط لأكون مهندس ديكور، وفي لحظات من حياتي فكرت أن أسير على نهج ناجي العلي، وبالفعل كلما تفجرت الأحداث من حولي، وكلما تأزمت مواقف الوطن، وكلما حاصرت قوى الشر مسيرة شعبنا، لجأت إلى الرسم الكاريكاتيري لأعبر عن رأيي ومواقفي.

رومانسية الفنان أم واقعية المحامي

بعض هذه المحاولات وجدت طريقها إلى النشر، من خلال صحيفة "الطليعة" الأسبوعية التي كانت تصدر في القدس، وكنت أوقعها باسم مستعار. كما نشرت لي صحيفة "الشعب" المقدسية العديد من رسوماتي. إن الفن، يعطر الحياة، يكشف عن الجانب الجميل فيها، ويجعلنا قادرين على تحمل ما في العالم من قبح وظلم وأنانية.

إننا نهرب من مشاعر الإحباط والقهر والحصار إلى دنيا الفن الجميلة، إلى اللوحة البديعة أو الزهرة الرقيقة، والقصيدة الجميلة أو الرواية الصادقة أو المسرحية البديعة أو اللحن العبقري. كان الفن دائما زادي وإلهامي ومصدر إثراء روحي ووجداني، وكنت أرتوي من نبع الثقافة والفكر والأدب. عندما التقي صفوة القوم في ذلك البيت الهادئ الوديع في رام الله، حيث تحرسه شجرتان من الياسمين، ويطل من على بعد على شواطئ يافا وحيفا وعكا. وتعلمت من عشقي للأدب والفن، أن أكون نصيرا للحق، وجنديا محاربا ضد البطش والعدوان والقهر. إن فنانا بلا قضية، لا يُعد فنانا كما يقول غسان كنفاني، ولكني في نهاية المطاف وجدت نفسي أهرب من رومانسية الفن الى واقعية القانون وعالم الصراع في دنيا المحاماة.

ولهذا كله درست الحقوق، وأخذتني مشاعري وأقداري وقضية وطني، إلى ساحة المواجهة الخطيرة، حيث نصارع العدو بالمادة والقانون والثقافة والشجاعة، ولا نغفل لحظة عن أسلحة الغدر التي قد تغتالك في أي لحظة.

بانوراما نضال طه

ولد نضال أمير محمد طه عام 1950 في قرية بديا محافظة سلفيت، وكان منذ نعومة أظفاره مغرما بفن الرسم، وقد تجلت موهبته منذ دراسته الابتدائية حيث كان يرسم اللوحات التوضيحية المكبره بتكليف من أساتذته لتمكينهم من إيصال المعلومة للتلاميذ الصغار.

وكان طموحه أن يدرس هندسة الديكور في إيطاليا لتأمين لقمة العيش وصقل موهبته الفنية، ولم يتمكن من السفر، فانصرف إلى دراسة الحقوق منذ أواسط السبعينيات ومارس المحاماة بروح المثابرة والنشاط والرغبة في التفوق والإبداع وقد حقق في هذه المرحلة انجازات عديدة في ساحة العمل القانوني والمحاكم.

الأرض والعطاء قدر مشترك

لا يُفضل نضال طه الحديث عن نشأته وأسرته، ولكنه لا يستطيع أن يكتم حنينه وحبه وانبهاره بوالده أمير محمد طه الذي كان يعمل مديرا لزراعة الأغوار منذ العهد الأردني. وفي فترة الاحتلال تواصل عمله، وكان لديه طاقما من ثمانية عشر مهندسا زراعيا بالإضافة إلى نائبه، واستطاع هذا الفريق خلال فترة وجيزة أن ينقل التكنولوجيا الزراعية المتقدمة الإسرائيلية التي كانت منتشرة في الحقول والأراضي الزراعية ويشمل ذلك الزراعة والأسماك والدواجن والتسميد ومختلف مفردات القطاع الزراعي الأخرى، وقد نجحت خطته بشكل جيد، الأمر الذي أزعج السلطات الإسرائيلية التي كانت تخطط لابتلاع الأغوار،ولتعطيل المشروع الفلسطيني الوليد، ولإجهاض تنمية زراعة الأغوار قرروا نقل والدي إلى رام الله بذريعة تقليدية معروفة، فقد تمت ترقيته إلى وظيفة مدير البحث العلمي، وذلك بهدف تجميد قدراته وإبعاده عن مخطط التطوير وتنمية الزراعة في الأغوار وتم في نفس الوقت نقل نائبه وإبعاده عن الأغوار أيضا كي يتم القضاء على الحلم في امتلاك زمام التكنولوجيا الزراعية الحديثة ألذي أخذ يتجسد على أرض الواقع .

كان والدي عاشقا للأرض، ومحبا للزراعة والخضرة والشجرة.. فقد تخرج من معهد خضوري الزراعي بطولكرم، ولما كانت الأرض قدره وقضيته، فقد كانت قدري وقضيتي.

وعن أسرته الصغيرة يقول: كلها متورطة ومنغمسه في القانون، فزوجته سهى عليان محامية ومستشارة قانونية في وزارة العدل، وابنه الكبير طارق أنهى دراسة القانون من جامعة القدس ويتدرب على أعمال المحاماه، وابنه الثاني تامر أنهى دراسة الحقوق من بير زيت وحصل على ماجستير في القانون من بريطانيا ويتدرب على مهنة المحاماه، وابنته الصغيرة تالا حاليا في السنة الثالثة بكلية الحقوق في جامعة بير زيت .

النضال في ساحة القانون

عمل نضال طه مع عدة مؤسسات تعنى بتقديم الخدمات القانونية للمعتقلين الفلسطينيين وحقوق الإنسان بضمنها، مركز القدس للمساعدة القانونية، ومن ثم استطاع مع بعض زملائه في أواسط السبعينات من تأسيس أول مؤسسة تعنى بحقوق الإنسان، والدفاع عنها في المناطق المحتلة لمواجهة الانتهاكات الخطيرة التي كانت ترتكب من قبل الاحتلال.

وبعد جهود مضنية استمرت ثلاث سنوات نجح في تأسيس جمعية القانون من أجل الإنسان المعروفة حاليا بمؤسسة الحق، وقد عملت هذه الجمعية منذ ولادتها لغايات توفير الحماية لها تحت مظلة جمعية

الحقوقيين الدوليين في سويسرا، ولاحقا اشتد عودها وقويت شوكتها، فأصبحت اليوم من المؤسسات الرائدة في مجال حقوق الإنسان، وهي تتمتع بالمصداقية العالمية، وقد شغلت منصب رئيس مجلس إدارتها على دورتين، ولم أقم بترشيح نفسي للدورة الثالثة تعزيزا للنهج الديمقراطي في المؤسسة، واكتفيت بعضوية مجلس الإدارة والهيئة العامة لإكمال رسالتي التي كرست لها حياتي وهي الدفاع عن حقوق الإنسان الفلسطيني.

وعندما تأسست "لجنة المحامين العرب" وتم افتتاح مقرها في القدس، وعملت كإطار يضم المحامين الفلسطينيين غير المضربين عن العمل، وكان ذلك قبيل عودة السلطة الفلسطينية للوطن ترشحت لعضوية مجلس إدارتها وفزت بالعضوية عبر انتخابات حرة ونزيهة وتوليت مسؤولية الشؤون القانونية والمهنية.

وعندما عادت السلطة الوطنية الفلسطينية، وتم تأسيس نقابة المحامين الفلسطينيين، كأول نقابة فلسطينية تنشأ على أرض الوطن، قمت بترشيح نفسي لمجلس النقابة وفزت بعضويته عن دورة 2005 - 2007.

وفي ميدان صاحبة الجلالة

من المعروف أن هناك صلة وثيقة بين الصحافة والمحاماة، وكلنا يعرف أن عمالقة الصحافة المصرية، وهي الصحافة الرائدة في العالم العربي، كانوا محامين، ومنهم أحمد بهاء الدين، وإحسان عبد القدوس، وفكري أباظة وغيرهم.

ولذلك كانت الصحافة تشدنا إليها، وهكذا كتبتُ عشرات المقالات في شتى شؤون الوطن، وخاصة في مجالات النقد الأدبي، ولم أكن محترفا، بل كنت مشاركا بالرأي والموقف، وتم اختياري في تلك الفترة كعضو في هيئة تحرير مجلة "البيادر الأدبية" المقدسية، وهي أعرق وأقدم وأهم مجلة أدبية في فلسطين في ذلك الحين، وتواصل تعاوني مع أسرة المجلة منذ أواخر السبعينيات حتى أوائل الثمانينيات.

النضال القانوني على حد السيف

ويتابع الأستاذ نضال سرد لمحات من شريط حياته الحافلة فيقول: إلا أن أهم محطة في حياتي المهنية، وأصعبها، وأخطرها، كانت التفرغ للدفاع عن ضحايا البيوعات التي كانت تتم بالغش والاحتيال والتزوير من قبل حفنة من العملاء والسماسرة،لا يتعدى عددهم أصابع القدم الواحدة لصالح الشركات الإسرائيلية، وذلك بعد أن تكشف أمر هذه العصابة وأصبحت تشكل خطرا داهما على المواطنين الفلسطينيين، تستهدف سمعتهم الوطنية، ومن ثم ممتلكاتهم التي يتم بيعها بطريق الاحتيال والتزوير دون علمهم.

من بركات كامب ديفيد!

ويقول نضال طه: من الغريب أن هذه الظاهرة كانت نتاج اتفاقات كامب ديفيد التي وقعها الرئيس السادات مع بيغن في 1978/9/17 حيث ورد في نص الاتفاقية مادة تقضي بتجميد الاستيطان الرسمي لفترة معينة (ستة شهور)، ولتجاوز هذا النص والالتفاف عليه، وإفراغه من مضمونه للإبقاء على الاستيطان مستمرا، سمحت الحكومة الإسرائيلية للشركات الإسرائيلية كقطاع خاص غير رسمي بشراء الأراضي في الضفة الغربية، لإقامة مشاريع استيطانية عليها، ونشطت هذه الشركات بشكل مسعور

لشراء الأراضي بمساعدة السماسرة العملاء، ولم تتورع في سبيل تحقيق هذا الهدف عن ارتكاب كافة أنواع الجرائم من الغش إلى الاحتيال إلى التزوير إلى التهديد واستخدام عنصري الترغيب والتهديد، وممارسة العنف إلى درجة القتل.

في نابلس جبل النار قريبا من الميدان

ومع ازدياد ظاهرة تسريب الأراضي بالطرق الاحتيالية، اضطر المحامي نضال طه إلى إغلاق مكتبه في رام الله، وتفرغ كليا للعمل في مكتب نابلس، للدفاع فقط عن ضحايا هذه البيوعات، وقد استمر عمله في هذا المجال منذ سنة 1979 حتى سنة 1986.

استطاع من خلال عمله المتواصل وبمساعدة زملاء له متطوعين من داخل الخط الأخضر وخارجه، من كشف وتعرية كافة الوسائل الاحتيالية التي اتبعتها الشركات الإسرائيلية بتواطؤ من الجهات الرسمية، ومساعدة حفنة من السماسرة على المستوى المحلي والإسرائيلي بل والعالمي.

ونجح فريق من المحامين بمشاركة نضال طه في وضع حد لهذه المأساة، كما نجح في تجنيد وسائل الإعلام المحلية والعربية والعالمية وحتى الإسرائيلية لمؤازرته في معركة تصديه لهذه القضايا الهامة والخطيرة.

وهكذا تم إنقاذ الكثير من الأراضي المسربة بالطرق الاحتيالية، كما تم إيقاف العمل بمستوطنتين، تم الشروع ببنائهما على الأراضي المسربة بالطرق الاحتيالية بعد أن تم انجاز بنيتهما التحتية.

وبلهجة لا تخلو من رنة انتصار يقول أبو طارق: لو لم ننجح في إيقاف العمل بالمستوطنتين المذكورتين وإلغاء فكرة إنشائهما، لكان عمر أصغر مستوطن ولد فيهما اليوم بلغ 32 عاما.

جنود الحق والوطنية الصادقة

يقول أبو طارق في تواضع جميل وفي صوته رنة فخر واعتزاز: وفي هذا الصدد وللأمانة التاريخية، لا بد لي من ذكر أسماء بعض المناضلين والشخصيات الوطنية ممن عملوا جاهدين وبكل الطرق لإفشال مؤامرة تسريب الأراضي، وعلى رأس هؤلاء الشهيد فيصل الحسيني، والمرحوم وحيد الحمد الله رئيس بلدية عنبتا في ذلك الحين، والسيد بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس الأسبق، وأقولها للتاريخ، لولا الدعم المعنويّ الذي تلقيناه من هؤلاء الكبار، ولولا متابعاتهم لما قيض الله لنا تحقيق ما حققناه.

يوم قتل إبراهيم الأقرع

ولا بد لي من أن أذكر الأستاذ أكرم هنية، أحد أقرب تلاميذ أبو عمار إلى قلبه، كان أكرم يومها يشغل منصب رئيس تحرير جريدة "الشعب" المقدسية. فقد كان مواكبا ومهتما لدرجة كبيرة بهذا الملف الخطير. وكان معنيا بمتابعة كافة تفاصيله وتطوراته. وأذكر أنني في يوم من الأيام، كنت أتناول معه وجبة الغذاء ويومها وضعته بالتفصيل في صورة كافة أنواع العمليات الاحتيالية التي كان يتعرض لها المواطنون بهدف نهب وسرقة أراضيهم. وحين أتيت على ذكر واقعة استشهاد إبراهيم الأقرع وتفاصيل وقوعه مخضبا بدمه،

برصاص حرس الحدود الإسرائيلي، وهو يصد الجرافة الإسرائيلية بصدره العاري لإنقاذ أرضه من التجريف، وجدته واجما ومتأثرا إلى حد انحدار الدموع الساخنة على وجنتيه.

وعندما أصدر أكرم مجموعته القصصية الجديدة كانت قصة استشهاد إبراهيم الأقرع إحدى أجمل قصصه القصيرة التي يرويها بأسلوبه الأدبي الرفيع وموهبته الفنية البديعة حيث حملت القصة العنوان التالي: "يوم قتل إبراهيم الأقرع".

محامو الخط الأخضر يجسدون وحدة الصف

المعارك التي يخوضها شعبنا وحدت بين أبناء فلسطين، في كل زمان ومكان، ولكن قضية تسريب أراضي الضفة الغربية، ووقوف المحامين من داخل الخط الأخضر وخارجه في صف واحد، أظهر التلاحم والوحدة بصورة رائعة في معركة خطيرة.

لقد عمل الزملاء داخل الخط الأخضر معنا تطوعا، ووا كبونا في كافة مراحل نضالنا القانوني والإعلامي في مواجهة تسريب الأراضي بالطرق الاحتيالية، وبالتحديد في التوجه لمحكمة العدل العليا الإسرائيلية، لإرغام الشركات والجهات الرسمية الإسرائيلية على احترام قرارات المحاكم الفلسطينية القاضي بوقفهم عن العمل في الأراضي المنهوبة، ومن هؤلاء الزملاء المرحوم المحامي رياض أنيس، والمحامي حسين أبو حسين وكلاهما من أم الفحم، والمحاميان محمد نعامنة، وإبراهيم نصار من عرابة البطوف، والمحامي سعيد العتيلي من طيرة المثلث، والمحامي عماد سليم سعد من نابلس والذي يشغل حاليا منصب قاضي في المحكمة العليا الفلسطينية .

فبجهود هؤلاء جميعا تم كشف وتعرية عمليات البيع المزورة ووضع حد لها، وفضح أساليب التزوير التي استهدفت سرقة أراضي الفلسطينيين بالغش والاحتيال والتزوير دون علم أصحابها الشرعيين، توطئة لإقامة مستوطنات عليها، وبيع وحداتها، والتزوير دون علم أصحابها الشرعيين، توطئة لإقامة مستوطنات عليها وبيع وحداتها بأسعار مغرية، ثم التسويق لها مسبقا في الصحف الإسرائيلية لبيعها للمواطنين الإسرائيليين، إلا أن حلمهم في الإثراء الفاحش المغلف بإطار إيديولوجي كاذب بهدف التغطية على جرائمهم، تطاير أمام إصرار المواطن الفلسطيني في الدفاع عن أرضه، والذود عنها بكل ما أوتي من قوة.

زمن الحياة على حافة الهاوية

ويستذكر الأستاذ المحامي نضال طه تلك الأيام بكثير من الاعتزاز والفخر، يقول: الحياة الروتينية ذات الإيقاع التقليدي لا تتناغم مع حياة المحامي، لأن المحامي يعيش وسط الصراعات، وسط بحر خضم من الانفعالات والعواطف والمشاعر الإنسانية، حيث تفرض عليه دراما الحياة أن يعايش مواقف العدل والظلم، الرحمة والعدل، الحق والباطل، الصدق والكذب، النقاء والزيف، القاتل والقتيل، وعليه أن يكون في وسط هذه الملحمة متسلحا بالثقافة والحذر، والحنكة والخبرة، عليه أن يكون ملما بكل القوانين، مدركا لكل خفايا وخبايا وثغرات القانون، وعليه أن يكون داهية حكيما بعيد النظر، لا تنطلي عليه ألاعيب

المهرجين والقتلة والكذابين. هذه هي ملامح حياة المحامي العادي، الذي يجب أن يكون بينه وبين نفسه قاضيا عادلا قبل أن يكون محاميا.

أما في قضايا الدفاع عن الأرض، فانه يضاف إلى كل ما تقدم، أن على المحامي أن يدرك أنه جندي في الخندق الأمامي للدفاع عن أراضي بلاده، عليه أن يتسلح بالإرادة والعزم وصلابة المناضل، وقوة المحارب، وبسالة الشهيد وروحه النقية الأبية.

الاغتيال سلاح الجبناء

من المبادئ التي لا خلاف عليها، أن كل من يحاول أن يرفع صوته، أو يشتم خصمه، يقدم الدليل على فشله، وفي ساحة المعركة على ملكية الأراضي، فإن من يلجأ إلى سلاح الغدر والتآمر والتهديد والقتل هو الطرف الأضعف، الطرف الباغي، الظالم المفتري.

لقد شهدت في مرحلة النضال من أجل قضايا الأرض أقسى وأصعب وأخطر ما واجهته في حياتي، كانت هذه المحطة هي الحد الفاصل بين الحياة والموت، بين أن أكون أو لا أكون. فقد كان عليّ أن أتعامل مع هذه القضايا كإنسان قبل أن أتعامل معها كمحامٍ، وبالتالي كنت أعيش هموم الموكلين وأتفاعل معهم، أحزن لحزنهم، وأفرح لفرحهم.

كذلك كانت رحلتي أنا وزملائي رحلة قاسية محفوفة بالمخاطر، حافلة بالمطبات والمفاجآت، وكانت مرهقة تحتاج إلى تركيز ومتابعة، وحذر لأننا نعرف أي خصوم كنا نواجه وكثيرا ما تأرجحنا بين الأمل والخيبة، بين اليأس والرجاء، بين التفاؤل والتشاؤم.

كانت لحظات رهيبة حاسمة تبدأ منذ لحظة أخذ التوكيل في القضية إلى حين معرفة الجاني والشروع في الإجراءات القضائية ومتابعة التبليغات وتنفيذ القرارات.

القفز فوق الموانع الملتهبة

ولم تكن السلطات الإسرائيلية محايدة، كانت تعرف حقيقة خصومها، وتدرك مدى مهنيتهم ووطنيتهم، فكانت تعمل على بث الألغام في طريقهم، وبذر الشوك والصخور في مشوارهم، ووضع العراقيل أمامهم لإفشالهم وإرغامهم على التراجع والانسحاب. وقد تعرضت للتهديد بالقتل والتصفية الجسدية عدة مرات وبوسائل متنوعة، وكانت هذه التهديدات جادة تنتظر الوقت والظروف المناسبة للتنفيذ.

فقه النذالة لا يتورع عن القتل

في واحدة من هذه المحاولات وكان ذلك عام 1983 كنا في يوم الجمعة، وكنت أقضي إجازتي الأسبوعية عند أهلي في رام الله، حيث كنت أقيم في نابلس كما أسلفت، وفي حدود الساعة السابعة مساءً، أوقفت سيارتي أمام البيت ونزلت منها، وتركت محركها شغالا، لأنني كنت سأتناول على الواقف غرضا من البيت ومن ثمّ العودة فورا إلى السيارة.

وما أن دخلت البيت حتى سمعت صوتا عنيفا يشبه صوت الانفجار، فعدت فورا إلى السيارة، وهرع معي كذلك والدي المرحوم أمير طه، فإذا بسيارة تفر بسرعة جنونية باتجاه طريق نابلس، وبفحص السيارة

والمكان تبين لنا أنه ألقي من هذه السيارة بحجر كبير على زجاج سيارتي من الخلف، ظنا من الفاعل أنني بداخلها، فإذا بالحجر الضخم يكسر الزجاج الخلفي، ويخترقه ليضرب الزاوية اليمنى للمقعد الذي كنت أجلس عليه فيخلعها، ويستقر فوق مقود السيارة بعد أن هشمه بالكامل.

لقد شاءت إرادة الله أن أهبط لحظتها من السيارة، لالتقط غرضا من البيت، ولو لم يحصل ذلك لكنت في ذمة الله منذ ثلاثة عقود.

وفيما بعد تأكد لي أن السماسرة أو مافيا الشركات الإسرائيلية، كانت وراء هذه الجريمة، حيث تلقيت بعد يوم واحد من الحادثة مكالمة هاتفية من شخص يقول وبتهكم: "خيرها في غيرها يا مناضل". ثم أخذ يقهقه بصوت هستيري موتور.

كل ما لا يقتلك يقويك

هذه الحادثة كان لها مغزى عميق في مشواري، أدركت أني على حق، وأن ما أبذله وأسعى إليه، نبيل وعظيم، واستعدت ما قاله الحكماء في مثل هذه المواقف: إن الضربة التي تأتيك من الخلف تدفعك إلى الأمام.

وتأكد دائما أن كل ما لا يقتلك يقويك. فلم أرضخ للتهديد والوعيد، لأن رسم ابتسامة الانتصار على شفتي كهل عجوز، ومحو العار عنه وعن أسرته يستحق أن نبذل في سبيلها كل غال ورخيص، حين يتم اكتشاف محاولة تسريب أرضه بالطرق الاحتيالية، ومساعدته في إفشال العملية، وإعادة الطمأنينة والسكينة لروحه وقلبه، ورد الاعتبار له في حياته وهو على أبواب لقاء ربه، كل ذلك يستحق أن يضع الإنسان روحه على كفه، وأن يبذل كل ما في استطاعته محاربا بكل السبل والأسلحة لمناصرة إنسان تُغتصب أرضه وتنتهك سمعته الوطنية بالتزوير والغش والخداع، وللحقيقة والتاريخ فإن ما قمنا به في هذا الصدد لهو أضعف الإيمان، ولا يقاس بما يقدمه الشهداء والسجناء من تضحية بأرواحهم وحرياتهم في سبيل الوطن والمواطن.

قوم لا يتطهرون

رغم مرور كل تلك الأيام والسنين، لا يزال نضال طه، يتأمل أحداث تلك الحقبة من حياته، كأنه يمعن النظر في سيناريو مأساة لا إنسانية أبطالها فقدوا كل صلة أو حس أو ثقافة إنسانية.

إن النزاع على الأرض، وإن أخذ في ظاهره شكل النزاع على الملكية بين أصحاب الأرض من جهة وسلطات الاحتلال من جهة أخرى، إلا أن جوهر النزاع هو نزاع سياسي وقومي تهدف إسرائيل من ورائه إلى إخلاء فلسطين والسيطرة على شعبها.

ذروة الألم الإنساني

إن أي إنسان يمر بهذه التجربة المؤلمة، أو ربما يكون قد عاشها من خلال محنة الآخرين لن يستطيع أن يتصور مدى الألم الذي يعانيه ضحايا هذه البيوعات القذرة. لقد شاهدت في مكتبي وبأم عيني شيوخا طاعنين في السن يبكون كالأطفال، ويتوسلون إليّ وكأنني المنقذ أو كأنني أملك مفتاح الخلاص لهم، كانوا يتوسلون وما زلت أذكر قول بعضهم لي:

هل تصدق يا أستاذ أن شخصا مثلي في هذا العمر، يمكن أن يبيع أرضه لليهود؟ ولماذا أبيعها يا أستاذ؟

أمن أجل النقود؟ وما فائدتي من النقود، وأنا في هذا العمر وعلى حافة قبري. كيف سأقابل وجه الله إذا كنت قد بعت ارضي؟

ويواصل الأستاذ نضال تسجيل خواطره وتصوراته عن هذه الذكريات المنطبعة على صفحة عقله ووجدانه، وربما للأبد فيقول:

كنت أعلم أن كافة خبراء علم النفس والاجتماع لن يتمكنوا من تخفيف الألم عن هذا الرجل العجوز. شيء واحد يمكن أن يشفيه من ألمه، البراءة من التهمة المنسوبة إليه.

كبيرة الكبائر

إن جريمة بيع الأراضي للعدو جريمة مركبة، فهي جريمة وطنية ودينية وقانونية وأخلاقية. فبيع الأرض مؤامرة فاضحة ضد الأماني القومية لإنشاء وطن للفلسطينيين، ومن الناحية الدينية هناك تحريم لدرجة التكفير، وإهدار الدم لمن يبيع أرضه لليهود، ويتساوى في ذلك المسلمون والمسيحيون، ومن فتاوى الطوائف المسيحية: "إن من باع شبرا من فلسطين فكأنما باع قبر المسيح".

ومن الناحية القانونية، فإن القانون الأردني المعمول به في فلسطين يحرم بيع الأرض للعدو.

أما من الناحية الأخلاقية، فان هذه القضية قضية مبدأ، قبل أن تكون شيئا آخر.

ومن هنا ندرك أي كارثة تحل بالإنسان المتهم ببيع أرضه لليهود.

الضحية هنا تجد نفسها وحيدة في مواجهة العالم بأسره وإذا لم تجد من يقف إلى جانبها، ويناضل من أجل استعادة حقها، ورد الاعتبار الاجتماعي والإنساني والوطني لها، فستفضل الموت على الحياة.

وتشكل المحاضرة التي ألقاها الأستاذ نضال طه يوم 1991/11/8 بدعوة من مؤسسة الأرض والمياه، ومن ثم نشرت بعد ذلك في مجلة المؤسسة تشكل مرجعية علمية وتاريخية هامة لواحدة من أهم قضايا الوطن الجريح.

خليفة محامي الأرض حنا نقارة

أخي نضال..

عندما أمعنت النظر في مسيرة حياتك، استوقفني أن أجد هذه الطاقة الجبارة في حماية القانون وفي القدرة على المرافعة، والتصدي للعدو، بالمنطق والحجة والبرهان، والنفاذ إلى روح القانون للدفاع عن قضية الأرض.

ولا أخالني أذهب بعيدا إذا قلت إنك تعد وبحق (محامي الأرض وخليفة المحامي الكبير حنا نقارة الذي كان يعرف بلقب محامي الأرض) والذي كرس حياته للدفاع عن أراضي الفلسطينيين قبيل وبعد عام النكبة 1948.

ولعلك لا تعلم أنني عاصرت مثل هذه الأحداث وما أشبه اليوم بالبارحة وأن التاريخ يعيد نفسه فقد تعرض المواطنون الفلسطينيون بعد أحداث 1948 إلى نفس هذه الأساليب والنهب التي واجهها حنا نقارة بكفاءة ومهنية وشجاعة واستطاع أن ينقذ عشرات المئات من الدونمات وان ينقذ صفحة رائعة من التاريخ من التزوير والغش والنهب.

أخي نضال..

إن تكريس حياتك ووقتك وجهدك وخبراتك بل وكل ساعة من ساعات عملك للدفاع عن قضايا الأرض، إن هذا العمل يشهد بأن في الشعب الفلسطيني كفاءات قادرة على النضال في شتى الميادين وفي مختلف العناوين والخنادق ببسالة وروح قتالية وجرأة لا تتراجع ولا تهادن ولا تخاف الردى.

وإنني أركز في هذه المقالات بقدر ما أستطيع على الكفاءات الفذة في الشعب الفلسطيني، لأصل إلى الحقيقة البسيطة التالية وهي أن شعبا يضم هذه الكفاءات في مختلف المواقع شعب يستحق الحرية والاستقلال ويستحق أن يأخذ مكانه تحت الشمس بين الحضارات والدول.

ولا شك أن هناك كثير من العبقريات الضائعة أو المستترة التي تحتاج إلى من يكشف عنها ويلمعها ويقدمها إلى الرأي العام لتأخذ دورها في البناء والتطوير، فليس كفاحنا مع العدو مجرد صراع يقوم على البنادق والخنادق والنار والرصاص والدم بل إن الصراع الحضاري الفكري القائم على العلم والمنهج والكفاءات العبقرية كل ذلك جدير بأن يجعل لفلسطين مكانتها وأهميتها على الساحة العربية والإقليمية.

ولا يفوتني أن أقدم شكري الجزيل لك عندما تطوعت للدفاع عن حقي في جريدة "فلسطين". فالمعروف أنني في عام 2000 وعلى أثر المنع من الوصول إلى القدس لم أستطيع مواصلة عملي في مجلة العودة والمكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية الذي مع الأخ إبراهيم قراعين، قمت بإصدار صحيفة "فلسطين" السياسية الأسبوعية برعاية وتوجيه الرئيس الراحل ياسر عرفات، وكانت بحق إضافة حقيقية للصحافة الفلسطينية من حيث الإخراج والطرح وقد استعنت في إصدارها بكفاءات صحفية ممتازة مختارة، وقد توالى صدورها خمسة أعوام متواصلة ولكن وبعد رحيل الرئيس توقف إصدارها. كما توقف إصدار مجلة "العودة" والمكتب الفلسطيني كوكالة أنباء.

ومن المؤسف أن يأخذ الإخوة في حماس في قطاع غزة اسم الجريدة وحق الامتياز بدون إعلامي ولي عتاب عليهم مع كل الاحترام والتقدير لهم لأنهم لم يستأذنوا مني ولم يعلموني بهذه الخطوة والتي هي حق من حقوقي الأدبية لأنني صاحبة الترخيص والامتياز بمقتضى أوراق رسمية لدى وزارة الإعلام الفلسطينية.

أنا مدينة للأستاذ نضال طه الذي تفهم أبعاد هذه القضية وتولى رفع القضية إلى القضاء الفلسطيني وترافع مشكورا وكسب القضية ورفض أن يتقاضى أية أتعاب. وقال: "هذا أقل شيء يمكن أن أقدمه لفلسطين".

وهذا الموقف يذكرني بموقف مشابه هو موقف المحامي يوسي ارنون من قيادة حركة السلام الذي رفض الخدمة العسكرية في مناطق الضفة الغربية وتحاكم وسجن، وهو الذي ترافع عن قضيتنا أنا وإبراهيم قراعين في المحكمة الإسرائيلية في القدس عندما رفض مسجل الشركات تسجيل اسم فلسطين للمكتب الفلسطيني. وقمنا برفع قضية ضد مسجل الشركات الذي رفض أن يسجل اسم فلسطين. لقد ترافع المحامي أرنون ابن يعقوب أرنون الذي كان من أوائل من التقوا بمنظمة التحرير.

ورفض يوسي ارنون أن يأخذ الأتعاب لتسجيل اسم فلسطين لنا وقال بالحرف الواحد: "ماذا سأقول لأبنائي في المستقبل عندما يسألونني ماذا فعلت من أجل السلام وحق الشعب الفلسطيني".

(2012/10/5)

المحامية نائلة عطية

المرأة التي ناضلت ضد الاحتلال

أهدت كتابها البكر: "مَن لا بحر له لا بر له" إلى روح الشهيد ياسر عرفات

بهذه الكلمات "حين حلمت بالبحر..كانوا يعدون لك العشاء الأخير"

لست روائية ولا أديبة ولكن الاضطهاد الذي تعرضت له في حياتي جعلني أجلس للكتابة

ترى أن الحل يكون في الدولة الواحدة ثنائية القومية

في المحكمة العسكرية نعتها المراقبون بالصخرة التي تقف في وجه القضاة العسكريين

ولا تتردد في أن تقول "لا"

أساتذتها: إميل توما، توفيق طوبي، صليبا خميس، حنا نقارة، إميل حبيبي

كانوا مثلي الأعلى وعلموني المبادئ الإنسانية والأممية والنضال ضد الاضطهاد.

نائلة عطية، اسم ينحني الإنسان له احتراما وإجلالا فلا عجب، فهي ابنة حيفا ابنة الكرمل التي بقيت فيها وبقيت جذورها في الأرض، هي صورة إبداعية مدهشة من المعاناة، والكفاح، من أقوى ما يتاح للخيال أن يتصوره.

تتلمذت علي يد الرعيل الأول من القادة في الحزب الشيوعي الفلسطيني الذين بقوا في حيفا وحافظوا على التاريخ والتراث وناضلوا ضد الحكم العسكري في إسرائيل، وخلقوا أجيالا من المناضلين وكانت من بينهم نائلة عطية، هؤلاء الأبطال، منهم توفيق طوبي، إميل توما، صليبا خميس، إميل حبيبي هؤلاء الفرسان العرب الأصيلين،الذين حافظوا على الأرض والتاريخ والتراث من الضياع، واهتموا بالإنسان العربي وبمعاناته، وها هي التلميذة لهؤلاء الحكماء تنطلق كالسهم في الفضاء، فيعبر الحدود والقيود، وها هي أول امرأة عربية من حيفا من جبل الكرمل، من تلاميذ وأبناء الحكماء الأساتذة الكبار، تترك بصماتها على التاريخ وتقف أمام المحاكم العسكرية الإسرائيلية لتدافع عن السجناء لسياسيين، وعن تزوير ومصادرة أراضي وأملاك العرب ونسف البيوت، ها هي نائلة عطية تتقدم ببصرها وبصيرتها بهذه القضايا، وترافع عنها في المحكمة العدل العليا.

نائلة عطية والرفاق المناضلين زعماء الحزب الشيوعي في حيفا هم الذين حافظوا على العهد، والتاريخ، وهم الشهود على التاريخ، ولم يغرقوا في بحر حيفا، ولكنهم الباقون في جذور الوطن، لكي يكونوا شهداء ضد الغرق.

الأبطال لم يذوبوا، ولم يغرقوا في بحر حيفا. ولكن مكثوا على الشواطئ بانتظار العشيرة والأهل من وراء الحدود من وراء بحر حيفا.

نائلة عطية أكملت المسيرة، مسيرة الآباء الأوائل الذين حافظوا على الحداثة والتاريخ العربي، هي شاهدة على التاريخ لتسجله.

نائلة عطية، المحامية ذات الشخصية الفولاذية القوية التي لا تنكسر مثل صخر الكرمل، والجمال العربي الساحر، تعرف أن الآباء تركوا لها رسالة لتكملها، هي وهم كانوا الضمير، وحافظوا على الوصية التي هي الأرض والحفاظ عليها، هي وهم الضمير الذي يستغيث ويرفض الذوبان والفناء.

نائلة، التي تكمل الرسالة من خلال دفاعها عن المظلومين في السجون الإسرائيلية، تطمئن محمود درويش وتوفيق طوبي وتوفيق توما وصليبا خميس: إننا هنا في حيفا الكرمل على العهد باقون.

نائلة عطية، هي حاملة الراية والرسالة، هنا هي البطلة في كتابها الجديد، والراوية عن عذابات شعبها، والباقية في حيفا حيث البحر وإشراق شمسها، ودفء المدينة، إنها راسخة في جبل الكرمل كشجر صنوبر حيفا والكرمل، يتطلع إلى السماء وهو في جذور الأرض.

نائلة عطية هي صرح من صروح حيفا الذين حافظوا على التاريخ، ووقفوا أمام الجبروت والطغيان وصمدوا أمام هذا الاحتلال، ولم ينكسروا على صخرة الأمواج في حيفا، وبقوا حافظي المدينة وحافظي مفاتيح أبوابها إلى أن يرجعوا الغياب من وراء البحار.

الأستاذ والتلميذة

قال لها يوما بشهر آب 1980 وهي دامعة رافضة الرحيل: اذهبي، ستمر السنوات بسرعة، وكما ذهبتِ من هنا أريدك أن تعودي إلى هنا! تعلمي، واحصلي على شهادة لترتقي بمستوى نضالك.

وحين اعترضت على موضوع القانون الدولي بقولها له: ليس لنا دوله، ماذا سأفعل بالشهادة! قال لها: تعلمي فالمستقبل لكم. أنتم من سيبني الدولة الفلسطينية ويكون من أعمدتها

في خاركوف وموسكو في شباط 1985 قال لها: أثق بقدراتك وبتحديك للظلم، وأريدك هناك، أولا ضد الاحتلال يقصد (الضفة) وسأعد لك أنا خطة دراسة الماجستير حول منظمة التحرير، وتطور دورها، والاعتراف بها كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني. وها هي اليوم قد حققت له ولو متأخرا بعضا مما أراده لها، أن تعمل بإطارها متابعة الانتهاكات الإسرائيلية!

على خطى والدتها

لقد نشأت بين القيادات الوطنية في حيفا وعلى خطا والدتها التي كانت رفيقة مناضله عنيدة في عصبة التحرر الوطني، ولاحقا بالحزب الشيوعي، ومع النساء الديمقراطيات ونساء بالسواد.. وبيتها كان مقابل المطبعة التي كانت منارة الباقين "مطبعة الاتحاد" بوادي النسناس.. والدتها كانت رسولة حزبها حملت

الرسائل السرية بين الحزب في الداخل والحزب الشيوعي اللبناني. ولم تعترف حين اعتقلت وخلال النكبة عملت جاهدة بتوزيع المناشير والوصول للحافلات والمهاجرين لإقناعهم بأنها مؤامرة ترحيل، وحاولت أن تثنيهم عن الرحيل في حيفا.

هي من كان شبلا، وناضل ودَربَ لاحقا مجموعة من الأشبال، أصبحوا اليوم أطباء وأساتذة. وهي من كان بلجنة الثانويين العرب التي أُسست بأواسط السبعينيات، وبادرت لإقامة المخيمات التطوعية صيفا لسنوات في الناصرة، دعما لها وللقائد توفيق زياد.

كانت تعمل بمكتب صليبا خميس سكرتير لجنة الدفاع عن الأراضي للتحضير ليوم الأرض الخالد في آذار 1976، وبعد ذلك، للتحضير لإصدار الكتاب الأسود الذي وثق المعركة وهي بالثانوية.

وحين انتقلت للجامعة وقبل سفرها وهي طالبه في الجامعة كانت فعالة بجمع التواقيع لتأييد مؤتمر الجماهير العربية الفلسطينية الباقية الذي حظر عقده بعد كل التحضيرات، وسمي بالمؤتمر المحظور وذلك في صيف 1980.

لقد كانت بالجامعة في حيفا طالبة منتخبة! ولأول مرة امرأة في اللجنة القطرية للجامعيين العرب وبعدها صديقتها سعاد نصر وهالة نصر وكتب الشاعر فاضل علي قصيدة ما زالت تحتفظ بها وجاء فيها "وبهمتك يا نائله وهالة زهر نلنا النصر .. نلنا النصر "!

ويتواصل مشوار الكفاح

درست في جامعة حيفا من العام 1977 ولغاية 1980 وعملت أيضا مربية أو محاسبة مع صديقاتها الطالبات بالمتجر القريب "سوبرسول" لشهور لجمع احتياج السفر لاحقا، فقد استدعيت للتحقيق نتيجة التصدي لزعران كهانا والاعتداء من قبل رجاله على القيادات الطلابية العربية هناك حيث وزعوا منشورا يطالب بطرد العرب للبلاد العربية على أساس أنه لا مكان لهم بفلسطين، فهجمت مع رفاقها تذكر منهم أمير مخول وفيصل جبيلي لتمزق تلك المنشورات وحدث التصادم، وكان عصام مخول سكرتير اللجنة الطلابية مطلوبا رأسه لهم، ولاحقوه، فهربته بطريقة أكيد لا ينساها! وقرر الحزب كفى! حتى تأخذ فرصتها لتحقق نفسها، وخوفا عليها رغم ظروفها الاقتصادية التي لا تسمح لها بان تغادر وتعتمد على أحد! فقام الرفيق صليبا خميس برفقة الرفيق يوسف صباغ بلقاء والدها وطلبا منه بأن يدعمها ولو بعشرات الدولارات سنويا، ولكنه كان يعاني من شلل منذ 1973 فلم يستطع ذلك. فاضطرت للعمل كل عام. بالعطلة الصيفية، تارة تجلي الصحون صيفا، وتارة تنظف البيوت في العطلات الصيفية لتؤمن ما استطاعت من احتياجاتها للاستمرار في الدراسة، حتى أنهت دراسة الماجستير وعادت للوطن فرحة لأنها نجحت بتحقيق مطلبهم لتغيير المصير المحتم!

نائلة عطية كانت رغم الفقر المادي الذي حرمها أن تتمتع كبقية الصبايا بشبابها، حيث عملت طوال فترة تعلمها وهي في الثانوية بعد الدوام الدراسي وقامت بنشاطات نضالية كتوزيع المناشير والصحف الحزبية بنهاية الأسبوع كما عملت في مكتبة حركة الصداقة بحي الألمانية بحيفا من الخامسة حتى السابعة. كما عملت بأرشفة مواد صليبا خميس وإميل توما لسنوات !

محامية وامرأة غير تقليدية

لقد كانت تلميذة مميزة استثنائية داخل الوطن، وخارجه، وبقاعات المحاكم لا يسعك أن لا تراها! صاحبة حضور قوي، من الصعب أن تنساها إن التقيتها ولو مرة!

هي في الحياة منذ أن ولدت من تلاميذ وأبناء الحكماء الأساتذة الكبار، تترك بصماتها على التاريخ، وتقف أمام المحاكم العسكرية الإسرائيلية، لتدافع عن السجناء السياسيين، تذكر منهم الدكتور الشهيد ثابت ثابت، والدكتور الشهيد أحمد المسلماني، والشهيد ربحي حداد المناضل العنيد، والمناضل كامل جبيل (أبو الأيمن)، والشهيد مصطفى العكاوي، وبدران جابر، وعبد العليم من الخليل Kوالدكتور محمد جاد الله وتحرير أرضه من امتلاكها على يد عميل بالغش والخداع!

كما ترافعت عن مئات شباب الانتفاضة الأولى منهم اليوم سفراء كالمتوكل طه، ومنهم رؤساء أجهزة أمنية كزياد هب الريح وفرج ومجاهد سلامة... يشرفها عامة الشعب وتجدها مقربة من كل بسطائه متابعة لهمومه غير مكترثة لأي مردود أو مادة! تتقدم ببصرها وبصيرتها في مختلف القضايا، وتترافع عنها في المحكمة.

سموها في برنامج تلفزيوني رغم أنها لا تحب الظهور وترفضه بـ"المرأة الاستثنائية". فقد عاشت حياة دراماتيكية عنيفة من حيفا إلى موسكو، ومن أوكرانيا إلى صحراء النقب، ومن صحراء النقب إلى القدس.. وقال لها الصحافي الكبير صليبا حين ترددت بالسفر وأدركت أنها ستقطع رحلتها النضالية والاجتماعية: أنتِ لن تكوني امرأة تقليدية مجهولة في الحياة إذا تعلمتِ. فأنت فتاة طموحة ورافضة للاضطهاد ولكِ المستقبل.

امرأة مسكونة بالبحر والوطن

نائلة، امرأة مسكونة بالبحر والوطن فلسطين ..كوحدة واحدة لا ترى الوطن إلا من خلال عيون بحر حيفا، عاشقة للكلمة، لكن لقمة العيش ورفض الذل ساقها لهذه المهنة التي غيرت مع كل من عرفها معناها فهي محامية من نوع آخر!

حين تقرأها أو تسمعها لا تصدق أنها ليست من عالم الأدباء ولو تهكمت على مقدرتها اللغوية وبالذات القواعديه! فقدرتها على الصياغة والتعبير تؤكد أنها أديبة من نوع فذ.. أديبة ضلت طريقها إلى ساحة القضاء ودنيا المحاكم في الأرض المحتلة التي يسودها اضطهاد الأقلية.

مؤلفة وأديبة من نوع آخر

حرارة الشمس مستمدة منها.. وأنت تجلس إليها لا تستطيع أن تلاحقها، أو أن تباريها، إنها تتدفق كالينبوع، كعين الماء الصافية، كالسيل تنتقل من فكرة إلى فكرة، ومن موقف إلى موقف، ومن شخصية إلى شخصية. إحساسها بالكلمة والحرف إحساس رائع، وقدراتها على التعبير فائقة، تشعر في حضرتها أنك في حضور فنانة شخصية استثنائية بكل المفاهيم، ولكنها قادرة دائما على أن تكسبك إلى صفها ببراعة أسلوبها وعذوبة ألفاظها وسحر منطقها.. فإذا غضبت كانت كالعاصفة ساخرة من القدر الذي حرمها الهدوء وأضفى عليها الثورة في أنفاسها. قدر لنا أن نلتقيها وهي بصدد إصدار مولودها، كتاب أودعته، نماذج رائعة من

قصص حقيقية عايشتها في ساحات القضاء والنضال الفلسطيني صاغتها ببراعة وأسلوب أدبي جذاب فائق.. فهي مزيج من الأحاسيس والمشاعر الذاتية والأحداث الوثائقية الواقعية.

وكان الكتاب على وشك أن يصدر، وكانت نائلة في حالة هي مزيج من النشوة والقلق لتحقيق مشاعرها وأحاسيسها، ورؤيتها، ولهفتها على هذا الوليد الذي يوشك أن يرى النور، وهو مزيد بديع من رومانسية وعبقرية فدوى طوقان، وواقعية ورمزية محمود درويش، أسلوب مميز بديع يأسرك.. ويأخذك إلى آفاق الشجن والإبداع.

الإبداع والخلق في مرآتهم

نائلة عطية منذ عهد التلمذة.. وفترة الصبا الباكر.. ومرحلة الشباب.. كانت دائما في رحاب الأدباء والكُتّاب والمثقفين، وكتب عنها الصحافي المقدسي واصل الخطيب ذات مرة حيث التقى بمجموعه من أدباء الداخل: إن بيت نائله صالون سياسي واجتماعي وأدبي عريق !

سفيرة فلسطين في الداخل

وفي هذا السياق سماها الكثيرون كوزير الثقافة آنذاك: الكاتب يحي يخلف "سفيرة فلسطين المحتلة منذ 1948 في فلسطين المحتلة 1967 وبجدارة".. عملت في صباها حينما كانت طالبة في الثانوية في مكتب المؤرخ الفلسطيني التقدمي الكبير إميل توما الذي كان قد أنجب ولدا واحدا. قالت نائلة بمودة وتعاطف:

- لماذا لم تنجب يا عمو ولدا آخر؟

فنظر إليها إميل توما بابتسامته العريضة.. وأشار إلى عدة كتب كانت موجودة على طاولة مكتبه من تأليفه وقال لها:

- وهؤلاء أليسوا أولادي!

من يتتبع مسيرة حياة نائله.. ويلاحظ ما بذلته من جهد وعرق ودموع.. وهي تلهث في شارع الحياة.. وراء قضايا المعتقلين وبالذات في حقبة الانتفاضة الأولى في المعتقل الصحراوي حيث تجاوزت ملفاتها في سنوات الانتفاضة 1500 معتقل ما بين استئناف على الاعتقال الإداري أو زيارته بغياب إمكانية زيارة الأهل وتتحدى إن دعمت ماديا من أحد رغم عدم رفعها يدها عن أي منهم استطاعت مساعدته وبدون مقابل .

ولقد أبدعت في الدفاع عن الأراضي وضد هدم البيوت، وكانت منذ الأوائل الذين تجرؤوا في مجال التعويضات ضد دولة إسرائيل على جرائمها ضد الإنسان الفلسطيني.. وضد هدم البيوت الفلسطينية كقرية النبي صموئيل شمالي القدس التي ألغت أوامر الهدم فيها وبقيت البيوت عامرة رغم أنها غير مرخصة واللاجئون إليها ليسوا أصحابها .

ولقد تابعت عشرات الدعاوى ضد الدولة في الجرائم التي يرتكبها الجنود. مرت المحامية نائلة بالكثير من التجارب، وعايشت عشرات النماذج والشخصيات واكتوت بنار العنصرية والقهر، وحققت انتصارات رائعة. ولكن هذه الثروة العظيمة من التجارب والخبرات والأحاسيس والمشاعر، لم ولن تذهب سدى، فكان عليها أن تسترجع تفاصيلها لتدونها بدقة وأمانة، تلك رسالة لا بد من إيصالها وواجب لا بد أن تبذل كل ما تملك من جهد وعرق لتسجله كوثائق تشهد كم كان رائعا شعبي المضطهد .

يؤرقها أن لا تجد الوقت الكافي والظرف المناسب لتكتب.. وتفرغ كل ما في جعبتها من تجارب وأفكار وخواطر وأحداث عايشتها شخصية أم عامة، تقول نائلة: من أهم الأساتذة الذين أثروا في حياتي.. وساهموا في صقل كياني وشخصيتي وطنيا وحزبيا إميل توما وتوفيق طوبي.

بهذه الصراحة، وذلك الصدق، وهذا الأسلوب المباشر تتعامل نائلة مع الحقائق ومع معطيات الحياة، فكرة الكذب والنفاق والمواربة، صدامية في كثير من أمور حياتها فأنت سر جدعنة نائله تكتشفه بعد أن تعرف بنت من هي. كتب عصام العاروري: فأمها مناضله عنيدة ووالدها صياد سمك جدع طيب ..تناقضها أحسن بالتعبير عنه العاروري: الآن عرفت سر جدعنة نائله التي تتحدى الإعصار وتنحني للريح في آن واحد.

وتكره نائلة القيود وتكره القواعد التقليدية والأساليب الجافة المتحجرة وتعشق الحرية والانطلاق.. إنها كالفرس الأصيلة لا يمكن أن يأسرها إلا من كان صادقا صريحا.. يصدق ذلك على الأشخاص- كما يصدق في الحياة والناس والأعمال،

نائله لم تكن تعنى بقواعد اللغة، وضاقت بقوانين وقواعد سيبويه، ولكن فطرتها السليمة يجعلها تنطلق معبرة بإحساس وسلاسة وبعبارات قوية فصيحة، دون أن تلحن أو تخطيء. إن فطرتها، تهديها إلى الأسلوب السليم. أما أدبها وكتاباتها، فهي صورة صادقة لإحساس رائع قوي ملتهب، معطر بشذى الموهبة والفن والإبداع.

قضايا .. واهتمامات

وهي لا تهتم بنوع القضية، ولا بمقدار ما ستجنيه من أتعاب، إن حسابات المكسب والخسارة عندها غير خاضعة للاعتبار الماديّ، كل ما يهمها أن تتصدى للدفاع عن إنسان مظلوم وتساهم في إعادة حقه له.

وهي في حالة صدام دائم مع آلة البغي الإسرائيلية التي تسوق الفلسطينيين إلى زنازين الظلمة والتعذيب لمجرد أنهم يطالبون بحريتهم وحقوق شعبهم.

أكثر القضايا التي أثرت بها مع بداية عملها كانت قضية لميا الفلسطينية البرازيلية وزهرة قرعوش وبنت قرية بيتا منيرة حمايل لا تنسى حرقة دموعها وهي التي قتل المستعمرون أخاها فهبت لتطردهم من القرية، وحين قُتلَ المستوطن تحملت التهمة هي أيضا! دفاعا عن النفس وحكم عليها! ولا تنسى قضية الصحافي أكرم هنية عندما أبعدته السلطات الإسرائيلية بأمر ما زالت تحتفظ به لإحدى قصصها.. وقعه آنذاك ايهود براك، وعجزوا عن تقديم مادة تدينه غير أنه من قادة فتح!! وتأثرت بزيارة والدته الحجّة.

وقد واصلت حياتها بثبات وقوة، إلى الأمام. وبعد أن بدأت الانتفاضة الأولى تعثرت دراستها للترخيص من نقابة المحامين .

انخرطت نائله بهموم المعتقلين وبغياب الاهتمام بمتابعة شؤونهم بعد أن صدمت باتفاقية أوسلو ونقصانها.. في قضية الأسرى.. فحضرت تقريرا ينتقد الممارسات الهمجيّة مع المعتقلين وحرمانهم من أبسط الحقوق الإنسانية في المحكمة وعدم تسميتهم إلا بالأرقام كالنازيين.. وتقدمت بالتقرير الذي ركز على الخروقات إلى نقابة المحامين/ دائرة حقوق الإنسان والمواطن وكانت عضوا فيها لسنوات، فسمعوا شهادتها عشّية الانتفاضة الثانية وقررت النقابة تشكيل لجنة لتقوم بالزيارات الدورية للمحامين المتابعين لمراقبة ومتابعة الخروقات، وما أن بدأت بتنفيذ المراقبة وقد شاط غضب القاضي حنيئيل يورم الرئيس فهددها

قائلا: عطية من يضحك يضحك بالآخر! وضحكت هي بالآخر، حتى روني بارؤون الليكودي الذي شغل آنذاك قاضي استئناف عسكري قبل أن يشغل مستشارا قانونيا حياها على تقريرها ووجد بالممارسات العسكرية تجاوزا فاضح بقوله لها حين التقيا صدفة بالمحكمة وكانت برفقة المحامية تسيمل: كل الاحترام واظبي بكفاحك لقد استوعبت الهيئة العسكرية رسالتك !!!

وكان هذا بعد أن حاول الانتقام منها رئيس المحكمة العسكرية بفتح ملفات ضدها بأنها تحرض على الدولة وتنعتها بالفاشية؛ فمثلا حين جاءت للمحكمة يوما شمال رام الله ببيت إيل المستعمرة ووجدت كبار السن متجمهرين بالحر خارج قاعة المحكمة داخل الأسلاك كالقفص لساعات وساعات وقد صادروا لهم الهويات لكي لا يغادروا قبل المحاكمة بقضايا السير وهي محكمة عسكرية! صاحت بهم اخرجوا وعودوا إلى بيوتكم وهوياتكم سأحضرها أنا فأنتم لستم مجرمين..

شكا القاضي للشرطة واستدعيت للتحقيق معها.. فسردت الممارسة الهمجيّة وتحدت: كيف تقبلون بهكذا معاملة وكلهم كبار السن وفي داخل قفص كبير ساعات وساعات بحجز بطاقاتهم! وكأنهم مجرمين.. وطالبت بمحاكمة القاضي وليس بمحاكمتها. وبعد اتفاق أوسلو كانت تطالب بإلغاء المحاكم العسكرية وحفظ كرامة الإنسان أولا وقبل كل تنسيق واتفاق ثم أرسل لها لاحقا إغلاق الملف ضدها!

إلغاء التعذيب بالصعقات الكهربائية

ومن القضايا المفصلية التي لا تنساها التعذيب بضربات الكهرباء فقد نجحت في إلغائها واعترف القاضي العسكري يومها "ليفني": إنها لبؤة ومقدامة، وكان الضحية معتقلا عريسا فلسطينيا من الخليل "رياض أبو عصب"، الذي اعتقل بعد زفافه بشهر تقريبا، في أواخر عام 1990، وذهبت للظهور في محاكم تمديد الاعتقال بالظاهرية، فسمعت صوتا غريبا وصممت معرفة مصدر الصوت وإذ به إنسان يعاني من ضربات الكهرباء، وقد رفعت دعوى ضد الدولة لاحقا ولكنه للأسف وبعد إطلاق سراحه لم يعد رغم العلاج لحالته الطبيعية في السجن. وقد علمت مؤخرا أنه وضع حدا لحياته وقد انتحر في غرفة نومه حيث فتح عليه قارورة الغاز.

نائلة تحرر أراضي قرية الميديا

وقد نجحت نائلة عطية في تحرير أراضي قرية الميديا قضاء غرب شمال رام الله بعد أن وضعت اليد عليها دولة إسرائيل وتملكتها أي سجلتها "طابو "باسم دولة إسرائيل لكي تسهل طرد أهل الأرض والاستيلاء عليها. فألغت وثائق الطابو كونها تقع على حدود منطقة الحرام وداخلها باتجاه الضفة وبينت التناقضات والتلاعب بالخط الأخضر وزيف ادعاءات حارس أملاك الغائبين! فلم يرحل أهلها يوما ولم يكونوا غائبين!. فعاد الأهل لامتلاك أرضهم وبقوا عليها وهي تتجاوز مساحة الألف دونم بعد أن كان قد صدرت أوامر من المحكمة بإخلاء الأرض وهدم البيوت غيابيا وتغريم الفلسطينيين بتهمة اقتحام واستيطان أرض دولة إسرائيل؟! وهي أراضي ضفة .

وعلى صفحات فلسطين الثورة

ولعل كلمة الصديق محمد قدورة تلخص كل ما جاء أعلاه حين قال لها على صفحتها الضوئية: إنك تساهمين يا أستاذة نائله في تمييز المرأة الفلسطينية لقفزة نوعية لمشاركة المرأة عن جدارة في أدق القرارات الفلسطينية.. وأضاف: أحييك يا ورشة نضال ويا نموذجا فذا للعطاء وثقي كيانك بالإبداع.

وكان الأستاذ محمد باسل سليمان رئيس تحرير "فلسطين الثورة" يراقب نشاط نائلة بحكم جيرتهم وصداقتهم ورفيقة قديمة تعرفه منذ العمل بأروقة الاتحاد بمكتب الأرشفة عند صليبا خميس حيث تواصلوا هاتفيا بأسماء أيامها غير حقيقية بغياب الفاكس والوسائل الأخرى لنقل الرأي والموقف والكلمة لمكتب فلسطين الثورة بالات أيام قبرص!. وقد كتب لاحقا بعد وفاة والدتها (نظلة ووهج اللقاء الأخير) التي اعتبرها سنديانة فلسطين وطود أشم بعد أن عرف سيرتها.

قال الأستاذ الصحافي الكبير للشابة الثائرة:

إنكِ أمضيتِ حياتك في ساحة النضال ولكن لم تكملي دورك، واجبك أن توثقي وإلا وكأنكِ لم تفعلي شيئا .

جاء وقت الميلاد

وها هي نائلة عطية.. تحاول أن توثق ذكرياتها وتجاربها، وعشرات بل مئات الحكايات والمواقف التي مرت.. بها تحاول.. ان تصوغ من هذه التجارب.. أفكاراً وقصصا وإبداعا أدبيا.. يخفف عن كاهلها ما حملته في أعماقها وتسكبه على الورق زادا وفكرا وتجربة لعلها تكون منارة أو شمعة أو بصيصا من نور يهدي الأجيال وينير الطريق إلى الخير والحب والجمال.

هل أكون عند حسن ظنهم

انهالت الرسائل والتعليقات والخواطر.. حول كتابها "مَن لا بحر له لا بر له"، وهو في نطاق الأصدقاء والمعارف، وجاءت ردود الفعل تؤكد أنها على درب الحقيقة، وأن ما تفعله كان جديرا بان تقوم به منذ سنوات.

وأثلجت هذه البوادر صدر نائلة، وتشجعت، وشعرت أن سنوات النضال لم تذهب هدرا، لقد عمقت أفكارها وصهرت عواطفها، وأرهفت وجدانها وأثرت تجربتها

الكاتبة والأديبة

كتب من باريس الدكتور ضيف لله حداد: عندما تكتب نائلة.. تكتب من معاناتها.. من يومياتها.. من جراحات فلسطين.. من الناس الذين تراهم وتعايشهم وتنافح عنهم وتندمج في معاناتهم.. مغمسة بالألم والدم حروفها.. حبرها من صلصال الكرمل.. وقلمها من خشب جبل الزيتون.. ما حاجتها للخيال، وما هي فيه.. أقسى وأمر.. من الخيال.. ما تكتبه نائلة جراح فلسطين ذاتها.. نائلة تقمصت فلسطين.. وفلسطين تقصمتها..

ويقول عيس إبراهيمي عنها:

الكاتبة ابنة حيفا والريس إسكندر تحاول في "من لا بر له.. لا بحر له" استكشاف لغة جديدة ومضامين جديدة لسياج الاحتلال ورموزه البشعة ضد أطفال الحجارة، وصيادي غزة وعكا تعبر بشكل أو بآخر عن إبداع واعد وموقف شجاع لمحامية شجاعة، تحاول الهراوة العسكرية في قبضة جيش الاحتلال تكسيرها وبث الرعب فيها كما تحاول الإبداع أيضا ضد المخرز والدبابة والبلدوزر والتزييف والتشويه الصهيوني .

لعل قراءتنا بهذه العجالة، لا تسعفنا في الوقوف على كل الرموز والإيحاءات والوقائع والشجاعة لهذه المحامية الفذة التي صاغت هذه القصص الرائعة والتي استوحتها من داخل سياج الاحتلال والوطن .

وفي معرض تقديمه نائلة عطية يقول الإعلامي الفلسطيني أنيس سويدان:

"هو البحر الذي سكن المحامية المناضلة السياسية "نائلة عطية"، منذ ولادتها على شواطئ حيفا. وكان والدها البحار إسكندر عاشق البحر الدائم، يحملها معه على حدود وطن ضائع شمال فلسطين، لينادي على من تبقى من أهله في الجانب الآخر من الحدود المزيفة .

هنا تروي نائلة قصصا لم يعرف تفاصيلها غيرها في رحلتها الدائمة بالبحث عن الحقيقة، والدفاع عن قضايا شعبها. قصص نضال من تاريخ شعبنا العربي ضد احتلال دام أكثر مما يلزم .

وتتبدى في كتاباتها ملامح شعب لا ينهزم، عربي الملامح من محيطه إلى خليجه.. وفي رواياتها السرمدية الواقعية من البحر إلى البحر تكشف لنا جانبا مهما ومجهولا من نضالات ما فتئت تنادي على الجيل القادم كي يشهد مرحلة التحرير .

وما بين حيفا وغزة مرورا بكل سجون الأسر والقهر الإسرائيلية تمتلئ ذاكرة نائلة بمئات الملفات التي حملتها على كاهلها من أجل نصرة قضية شعبها ونضالاته.

ملفات فلسطينية مقاتلة

وعندما نتصفح ملفات حياة المحامية نائلة عطية نجد أنها أنموذجا مشرفا للمرأة الفلسطينية. فقد تدربت في مكتب المحامية الإسرائيلية "فلتيسيا لانجر" وخاضت تحدٍّ للحفاظ على موقعها. فقد كانت المتدربة الأنثى الأولى التي تنجح فلتيسيا بتبنيها.

والواقع أنه بعد رحلة شاقة وقاسية في مواجهة ظروف إنسانية خلقت من نائله السيدة المسحوقة امرأة مقاتلة، قوية انتصرت على الظروف القاسية والمؤلمة، وفي الوقت نفسه انتصرت على الاحتلال الإسرائيلي في كثير من تعابيره، وبقمةٍ من التواضع والإنسانية .

محامية سياسية غير عادية

الإسرائيليون يقولون إن المحامية نائلة عطية هي محامية سياسية غير عادية، تتعامل مع المحاماة من منطلق الدفاع عن حقوق شعبها وضد التمييز العنصري، وتنادي بالدولة الواحدة ثنائية القومية عاجلا أم آجلا، وهي تمارس المهنة كرسالة وليس كوسيلة ارتزاق.

وكانت الأولى التي صرخت ضد سياسة الاغتيالات وضد عقوبة الإعدام وطالبت ودافعت بالمحكمة العليا ضد القتلة من الحكام مطالبة بالتوقف ومحاكمتهم ووصف الجلسة يومها المحامي افيغدور فيلدمان في مؤتمر المحامين بحضور رئيس المحكمة العليا اهارون براك بقوله: ما أن فتحت المحامية الجريئة عطية

فمها لتطالب بإلغاء الاغتيالات حتى فتحت عليها نار من ثلاثة قضاة محكمة العدل العليا.. وتساءل شيئا ما حصل لكم!..

بعد الجلسة وفي طريق عودتها إلى البيت تذكرت نائله أن القضاة وبالذات ميشيل حشين صاح مستغربا طلبها ضد الاغتيالات قائلا: أولادي (الجنود) وليسوا أولادك الذين يدخلون منطقة ألف ويتعرضون للموت... وكان ردها أن واقعها كفلسطينية معدومة مسلوبة الوطن والحقوق ومنعها باكرا من الاستقلال الاقتصادي وإنهاء التعليم والاستقرار العائلي حيث تعذر ذلك دون أي دعم عائلي أو وطني... قررت أن ترمي رسالة بوجهه وتصارحه بأننا لسنا القتلة بل المعتدي عليهم !

أكملت طريقها إلى رام الله وهي تسمع المذياع بسيارتها أن بورغ رئيس الكنيست الذي تركها لاحقا وانتقد سياستهم أعلن عن نيته زيارة رام الله والمجلس التشريعي إلا أن المخابرات الإسرائيلية ردعته بحجة الخوف على حياته!!

فقررت أن تتصل بمكتب محافظ رام الله وتطلب الدعم والمساعدة بالوصول إلى المدارس الابتدائية جميعها بالبيرة ورام الله لإرسال رسالة ترد عليهم بأننا لسنا ظامئين للدم بل للحرية والاستقلال والكرامة والحياة بوطننا .

وهكذا نجحت بجمع توقيع 7000 آلاف طفل حتى الصف السادس خلال أسبوعين وخرجت مع وفد من الأطفال لتجتمع معه في مكتبه بالكنيست وتوصل الرسالة نسخه عن الملف الكبير الذي ضم رسائل وتواقيع الأطفال وكعادتها لم تأبه للإعلام ونشر القليل حيث لم تدع أحداً والمأساة أنها حاولت أن تكون رسالة إنسانيه مجردة فتطفل عليها من عرفها هناك.. أحد أعضاء البرلمان العرب الذي لم يقل كلمه لبورغ، وفي اليوم التالي ملأ الصحفَ بأنه القائد المبادر والخطيب الأساسي .

وتقول نائلة: إن مشروع حياتي لهذه المبادرة أن تكون هناك: محكمة تتابع حقوق الإنسان!

محكمة خاصة لردع العنصريين المتطرفين بغض النظر عن القومية: وهي تطالب بإقامة جهاز قضائي لمتابعة انتهاكات حقوق الإنسان على أساس قومي، دستورها وقوانينها مستقاة من الوثائق والإعلانات الخاصة بحقوق الإنسان. وتمتلك شرطه ونيابة تابعة له، بدل أن يترك الفلسطيني فريسة ولقمة سائغة بفم المستعمر بلا رادع أو قامع للمعتدين يضطر أحيانا استفزاز شبابنا فيردون هم أيضا بممارسات فيها من خرق حقوق الإنسان ما يستوجب المتابعة.

حلمها الأخير كان ولا يزال أن لا تهمش فلسطينيا كونها من الوطن المحاصر .. من حيفا.. وتدفع طوال السنوات بالمعاملة والتصنيف والدعم ضريبة البقاء! يؤلمها أنها جندية منسية.. أن كان حلمها تتبنى فلسطينيا لتتابع عملها ومواجهتها للاحتلال بدون أن يقعدها أحيانا الاحتياج المادي أو تحتاج أن تدعم من صاحب المعاناة ...

ولا تزال في خندق النضال

وفي أطار عملها كرئيسة الوحدة القانونية لمتابعة الانتهاكات الإسرائيلية تعمل اليوم بكل جوارحها في موقع تمنته كل حياتها وهو المتابعة للانتهاكات الإسرائيلية والتي يشرف عليها عضو اللجنة التنفيذية محمد زهدي النشاشيبي.

وتُعد في الأيام الأخيرة، من بين ما تعد، وتعمل على تجنيد الطاقات لمشروع تطويب الأرض الفلسطينية بأسماء أصحابها الفلسطينيين في منطقة "ج" لتصعيب احتمال سلبها. والتطويب يشمل كل الأراضي الفلسطينية حتى المصادرة كون المستعمرات هي أصلا غير شرعية، وبالتالي مصادرة الأرض الخاصة ووضع اليد عليها هو عمل غير شرعي، ويجب عدم التسليم بواقع الاحتلال كونه لا يشكل بنظرها أمرا ملزما، ويمكن تحدي كثير من واقعه واستغلال ثغرات قانونية. تعتقد أن أوسلو غير مقدس وعلى الفلسطينيين أن يستعيدوا سيادتهم على أرضهم عمليا ويفرضوا بقائهم فشعب بلا ارض إلى أين؟

ذكريات لا تنسى

وما تذكره من مراحل طفولتها وبداية الوعي الشبابي، هي رحلة معاناة وألم وصراع مرير مع ظروف لا ترحم أبداً، فقد عملت في بداية حياتها وهي طالبة بالمدرسة لأن والدها أصيب بالشلل في عام 1974، وكان عمرها 15 سنه، وتوقف والدها عن الإنفاق على الأسرة بسبب مرضه، وخرجت والدتها للعمل كما عملت هي بعد الدوام المدرسي، وأشرفت على مكتبة تابعة لحركة الصداقة (الأخوة)، كما عملت مؤرشفة، ولم تنقطع عن الدراسة، حتى أصبحت محامية مرورا بجامعة حيفا.

وتذكر المنزل الذي عاشت فيه طفولتها بحيفا، كان يتكون من غرفة واحدة تدلف في الشتاء وكل ما سدت فتحة فتحت أخرى، وتناثرت الأوعية تحت الدلف حتى كانت سبعة. وكان الحمام مشتركا مع أناس آخرين، وأجمل ما عشقت في طفولتها هي وجارتها أميرة الديك الفنانة وفادية عايدة طاب ذكرها وبرت هو شجرة التوت التي جُنت حين رأت بعد عودتها من الغربة أنها لم تنتظرها وقُطعت!

وكانت أمها من العائلات الفلسطينية الجليلية (خوري) التي رفضت الهجرة عام 1948، فقام اليهود بجمعهم بأماكن محددة في "وادي النسناس" بحيفا وأحياء أخرى كجيتوات.

ومع الشاعر محمود درويش

عرفت محمود درويش كطفلة لعبت بالحارة وسكنت بجواره في شارع حداد، ولاحقا بالمتنبي بحي عباس وأحد أصدقائه الحميمين آنذاك تزوج بابنة الجارة شادية.

وخلال هذه الفترة عملت أمي في البيت الذي كان على مقربة من المطبعة في تجميع مجلة "الجديد" وهي مجلة أدبية كان رئسها تحريرها الشاعر الفلسطيني المعروف محمود درويش لفترة قصيرة، والراحل الشاعر سالم جبران الذي حدثني عن زياراته لبيتنا مع محمود ومتابعة عمل الوالدة وشرب القهوة على مدخل البيت الذي لم يغلق أمام الرفاق أو ليتابعوا الأخبار بعد أن اقتنينا بعام 65 التلفاز وندر أن وجد بالحارة تلفاز لكن والدي الذي عمل ليلا قسط ثمنه!

أحبت قراءة الأدب رغم الظروف التي لم تسمح لها سوى أن تحارب كي تعيش، ولم يكن لديها متسعا من الوقت للبكاء على أطلال أحزانها، ما جعلها تكرس كل جهدها ووقتها للعمل من أجل العيش والدراسة لتتحرر من العمل الأسود أو التبعية، واختارت سلاحا أشد ضراوة من سلاح الكلمة، وهو سلاح الكلمة المسلحة بالقانون كما شاء لها رفاقها في الحزب وأهلها لكي تتحرر اقتصاديا ولا تتبع أحدا إلا ضميرها.

(2012/10/19)

obeikandl.com

أحمد صافي

وهو في سن متقدمة من العمر، جثا على ركبتيه يقبل تراب أرضه في بيت نبالا ويرويها بالدموع، ويحفن من ترابها ويهيله على رأسه ويهتف: متى تعود؟

ستة من أولادها وأحفادها معتقلون في آن واحد، فمن تزور الحاجة كاملة ومن تؤجل؟

طاف مع "أبو محمد" ياسر عرفات ومصطفى عيسى أنحاء الضفة الغربية

في صيف 1967، ونيران الهزيمة تجتاح الوطن العربي

قال له أبو عمار: ما أنت يا أحمد؟ فقال: أنا بعثي

فقال له القائد: أنت "فتح"، ومن يومها أصبحت فتح مبدأه وعقيدته

قدمت مفتاح العودة لأبو عمار نيابة عن لجان المخيمات

فحفظ الرئيس العهد وقضى شهيداً دفاعاً عن حق العودة

أخي الثائر المناضل أحمد صافي..

لا زلت أذكر مواقفك الوطنية على مرور الأحداث، وتعاقب الصدامات، والمواجهات التي كنت على رأسها في رام الله، وفي مخيم الجلزون الذي كان ولا يزال منبعا للعمل الوطني، ومنارة، وقدوة، ومكمن الشرارة الأولى في كل حركة ثورية نضالية.

وكنت دائما مصدرا موثوقا لكل الأنباء التي كنا نبثها من خلال المكتب الفلسطيني في القدس إلى مختلف القنوات الإعلامية في العالم من جهة والى مكاتب ومسؤولي منظمة التحرير في بيروت وفي تونس حيث كانت الأخبار يوميا بكل دقيقة وبكل ساعة أمام الرئيس أبو عمار والقائد أبو جهاد وفي مكتب الإعلامي الموحد عند ماجد أبو شرار.

وقد لمست دورك الحيوي الفاعل في مقاومة الاحتلال ودورك الفعال في المقاومة والأخذ بيد الشباب ومساعدة أهل المخيم لرفع المعاناة عنهم وكنت أنت العنوان وأنت القائد الذي يقود السفينة الثائرة في مخيم الجلزون الثائر وكان لكَ دور مميز في تحمّل المسؤولية أثناء الانتفاضة الأولى عام 1987. كان دورك القيادي المجيد، بحكم موقعك الوظيفي التاريخي، وبحكم حب الناس لكَ، واحترامهم لمواقفك سببا أساسيا في تواصل شعلة الثورة حتى أُطلق على المخيم لقب "هانوي" تشبيها لها بالعاصمة الثورية

الفيتنامية. وهذه الموهبة القيادية الحكيمة تجلت في شخصيتك، فأنت المحرك الحقيقي للجماهير، أنت تاريخ، وأب روحي لحركة النضال. وهذه هي المعادلة الصعبة، التي تجلت في جيل من المثقفين الأبطال، ممن رفعوا لواء المقاومة الشعبية السلمية، قدمنا منهم: عبد الجواد صالح، وجابي برامكي رئيس جامعة بيرزيت والبقية تأتي.

المثقفون في الخندق الأمامي

إن موقعك على خريطة الثورة الفلسطينية يؤكد حقيقة تاريخية ونضالية واجتماعية هامة، وهي أن العناصر الثورية التي تقود النضال، لا بد أن تنتمي إلى الجيل المثقف، المتعلم، المستنير الذي كان بحكم الواقع والضرورة، يعمل في وكالة الغوث، ومن هذه السلسلة من القادة والمبادرين الثوار: غسان كنفاني معلم الرسم والتربية الرياضية، والأستاذ عبد الرحمن عوض الله مدرس اللغة العربية، والأستاذ فتحي البلعاوي، والأستاذ الشاعر معين بسيسو، والمحافظ المناضل مصطفى عيسى، والمناضل د. محمد الوحيدي، وجميعهم كانوا من موظفي وكالة الغوث.

ومن يتقصى تاريخ الثورة الفلسطينية ويتعمق في مسيرة روادها الأُول سيجد هذه الظاهرة واضحة جلية.

معايشة إعلامية

ودعني أقف معك لحظات عاشت في وجداني وانطبعت في ذاكرتي وأنا أعايش الاحتلال قبل الانتفاضة الأولى وتحركات الجماهير وثورتها المتواصلة في مخيم الجلزون، فقد كنت بحكم عملي الإعلامي أعيش الأحداث وأراقب المطاردات والاعتقالات وأكتوي مثل بقية جماهير المخيم بالغازات والمداهمات والاختناقات والملاحقات، وكان ذلك يتواصل على مدار الساعة، وفي أي لحظة من اللحظات، في الليل أو النهار، صيفا وشتاء.

وكنت دائما، حاضرا تتصدى للدفاع عن أهل المخيم، وتتلقى المعونات من الدكتور محمد الوحيدي الذي كان مدير عام الوكالة ومن ثم تقوم بتوزيع المؤن والمواد الغذائية بهمة ونشاط وأمانة، فهؤلاء هم أهلك وأبناؤك، يتعرضون للجوع والقهر والمطاردة في خندق واحد، ومواجهة واحدة، ولذلك تعددت مرات اعتقالك، لان صاحب المبدأ لا ينحني أمام جبروت الطغاة، ولأنك تؤمن بما كان يقوله أمير الشعراء أحمد شوقي:

"وقَفتُم بينَ موتٍ أو حياةٍ فإن رُمتُم نعيمَ الدهرِ فاشقوا"
"وللحرية الحمراء باب بكل يدٍّ مُضَرجة يُدقُ"

التصدي لعصابات البغي والعدوان

أمضى فجر حياته في مقاومة الاحتلال، والتصدي لعصابات البغي والعدوان التي تريد اغتصاب أراضي بيت نبالا موطن آبائه وأجداده. كان في السابعة عشرة من عمره، يوم بدأت العصابات الصهيونية تدك جموع اللاجئين الذين التجأوا إلى بيت نبالا قرب مدينة اللد، لتزرع في قلوبهم الرعب والهلع، وتجبرهم على ترك أراضيهم وبيوتهم، فرارا من جحيم النيران.كان ذلك في أيار عام 1948، عندما حدثت نكبة فلسطين.

ومنذ ذلك اليوم حتى هذه اللحظة، والمناضل أحمد صافي يتابع بفؤاد جريح، وعقل لبيب، ووجدان مشتعل مآسي شعبه الذي يذبح بحراب العنصرية والطمعِ والجشعِ واللاإنسانية.

ذاكرة ليست للنسيان

جاوز أحمد صافي الثمانين، ولكن ذاكرته لا تزال تشتعل بالأحداث الخطيرة التي واكبها، والمآسي الفريدة التي عصفت به وبأسرته وشعبه. إنه مرجع تاريخيّ حي لكثير من الأحداث التي شارك فيها. ولعب فيها أحيانا دور البطل، وأحيانا كثيرة دور المشارك وفي كل الأحيان دور الضحية.

التقى "أبو محمد" الشاب الوديع الذي كان يقيم في غرفة وحيدة قرب مدرسة رام الله الثانوية للبنات.. والتقى رفيقه وزميله مصطفى عيسى الموظف في وكالة الغوث، جمعهما مشوار العمر، إذ كانا يعملان في وكالة الغوث، وجمعهما مبدأ الانتماء إلى "فتح" والسير على درب النضال، واسترداد الوطن السليب والإيمان العميق بما كان يخطط له أبو محمد، القائد الشاب الذي جاء في صيف عام 1968/1967 لتأسيس خلايا وقواعد لفتح في الضفة الغربية، فطاف في كل مكان، ودرس وخطط، ومر بالجلزون مخيم اللاجئين الرابض على مدخل مدينة رام الله الشمالي، وكان بصحبته أحمد الصافي الذي رافقه وعاهده على الثورة وبايعه على مبادئ فتح. ولم يكن "أبو محمد" إلا ياسر عرفات.

صاحبة الجلالة وتوثيق التاريخ

عندما كنت أصدر صحيفة "فلسطين" الأسبوعية في رام الله نشرنا فصولا من ذكريات حياة الرئيس، والتقينا بنخبة من أصحابه ورفاق دربه، وقامت جريدة "فلسطين" ومجلة "العودة" بإعداد سلسلة من الحلقات الرائعة عن حياة القائد. فقد كان سيف الجلاد قد رُفع عن القلم الفلسطيني، ولما نشرنا الحلقة المتضمنة إقامة أبو عمار في بيت أرضي في مدينة رام الله قرب المدرسة الثانوية للبنات، قرب قلب رام الله المركزي، ظن كثيرون أن الخيال الصحافي والرومانسية النضالية وراء فبركة الحادثة، فما كان مني إلا أن نشرت صور البيت بعدسة المصور المبدع عباس المومني كما نشرنا شهادة من بقي من الجيران.

وها هو صديقنا المناضل أحد الصافي مدير مخيم الجلزون، ورفيق مصطفى عيسى (أبو فراس) يعيدنا إلى تلك الأيام الخوالي التي تفيض بشذا النضال والبطولة والشجاعة وتحدي هزيمة 1967، ومقاومة الجيش الذي لا يقهر"!".

حالة نضالية استثنائية

والدنا الشيخ الجليل أبو حافظ يشكل حالة نضالية نادرة، فقد

- اعتقل من قبل الاحتلال ست مرات وتعرض للإقامة الجبرية ومُنع من السفر.
- اجتمع مع أولاده وأحفاده في معتقلات الأسر.
- بلغ في مرحلة من المراحل عدد أولاده المعتقلين ستة أفراد بتهم نضالية مختلفة.
- هدمت الجرافات الإسرائيلية بيته وبيت ابنه حافظ.
- استشهد ولده "حسين جمال" وهو في الخامسة والعشرين من عمره في آذار عام 1983.

- انتخبته اللجان الوطنية للاجئين لتقديم مفتاح العودة للرئيس أبو عمار.
- قابل الرئيس في فجر شبابه فسأله:

- ماذا أنت يا أحمد؟

فقال له:

- أنا من حزب البعث العربي.

فقال القائد:

- أنت من اليوم "فتح".

ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم، وفتح قلبه وعقله ووجدانه أقرب إليه من حبل الوريد وأعز عليه من كل أبنائه وبناته.

الحاجة كاملة وسنوات الشوك والعذاب

كانت الحاجة كاملة، أم حافظ، تتابع شريط ذكريات رفيق عمرها. كانت حاضرة البديهة، قوية الذاكرة، في عينيها ذلك الوميض الذي يلمع كمزيج من الإحساس بالفخر المغلف ببقايا دموع من تلك السنوات البعيدة القريبة، الحافلة بالثورة والنضال.

كان ستة من أولادها وأحفادها وزوجها في معتقلات الاحتلال، في جنيد، والنقب، ونابلس، ومجدو، والرملة وغيرها. وكانت في حالة ذهول وألم. من تزور، ومن تؤجل.

بانوراما مناضل حقيقي

ولد أحمد مسعود خالد صافي سنة 1925 في قرية "بيت نبالا" قضاء اللد عام 1925، وهذه القرية تقع ملاصقة لأراضي مدينة اللد المعروفة. فالشارع الإسفلت يمر من بينهما وكان والده ضريرا، وله أخ واحد هو "محمود" وأختان، ورغم ظروف الوالد، فقد أصر على إلحاق أولاده بالدراسة، ومن هنا درس أحمد حتى الصف السادس الابتدائي في مدرسة بيت نبالا المشتركة، وفي هذه المرحلة أظهر أحمد تفوقا ملحوظا فقد كان مركِّزا على الدراسة، ومن ثم التحق بمدرسة دير عمار الإعدادية، وكان ذلك بعيد الهجرة.

بدأ وعي أحمد السياسي والنضالي في سن مبكرة، فقد كان نادي مخيم دير عمار الذي أسسته الوكالة يضم نخبة من الشباب الفلسطيني المهاجر الذي اكتوى بنيران الظلم والقهر، فتولدت في نفسه مشاعر الثورة والتمرد والنقمة، وهو لا يزال شابا غضا في مقتبل حياته.

وكان النادي ملتقى الشباب الرياضي، والذي أغرم بالرياضة كبديل لمشاعر القهر والإحباط فنبغ احمد الصافي في كرة القدم، وكان لاعبا معروفا كقلب هجوم، فجمع بين الاهتمامات الوطنية والرياضية مؤمنا كل الإيمان، بأن العقل السليم في الجسم السليم، وأنَّ المؤمن القوي أحب وأقرب إلى الله من المؤمن الضعيف

كانت في أعماقه رغبة قوية للانطلاق، وكان يُعد نفسه لمواجهة الصعوبات والأخطار، فكانت هذه الازدواجية الجميلة بين الجسم والعقل.

بذور الوعي والثورة في معترك الجماهير

عمل أحمد صافي لفترة طويلة من حياته في وكالة الغوث، وكان دائما موضع التقدير لانضباطه وأمانته وحسن أدائه، وهكذا تدرج في مناصب عديدة من العمل في دائرة رعاية الطفل بدير عمار بمرتب ثمانية دنانير عام 1957 إلى أن أصبح مديرا للمخيم براتب 80 دينارا، وهو مبلغ مهول في تلك الأيام في نهاية عقد الثمانينيات.

وقد أتاح له عمله في وكالة الغوث، أن يتحرك بسهولة بين الجماهير الفلسطينية وأبناء مخيم الجلزون، كان أعرف الناس بآلامهم وأحزانهم وجوعهم وخوفهم ومرضهم وصحتهم.

كان إحساسه بالجماهير المظلومة التي طردت من أوطانها، وفقدت كل مصادر دخلها، وخرجت بأيد فارغة لتواجه الفقر والعوز وذل السؤال إحساسا نمّ فيه مشاعر الثورة والقتال.

حتمت مطالب وظيفته عليه أن يلتقي بالناس، على مدار الساعة، وهم في أشد الحاجة إلى العون والمساعدة والذين يتذكرون مرارة وقسوة البرد والأمطار على اللاجئين في الشتاء، وشدة وهج وحرارة الشمس وقسوتها عليهم في الصيف؛ يعرفون أي معاناة عاشها الشعب الفلسطيني.. الذي كان أفراده يعانون من الجوع الحقيقي.. ليس على سبيل الخيال والتصور والمبالغة بل على سبيل الحقيقة، حيث تقدم لهم وجبات من الحليب وبعض الأرز والأطعمة على شكل جرعات قليلة، لا تسمن ولا تغني من جوع.

بانوراما أحمد صافي

عاش أحمد صافي المأساة الفلسطينية بكل أبعادها، واكتوى بنيرانها، ورضع من بؤسها وفاقتها حتى الثمالة. هرب مع والده الضرير تحت القصف إلى قرية مجاورة، ومن ثمَّ، لجأ مع الجموع الغفيرة المهاجرة إلى قرية دير عمار، حيث مخيم اللاجئين. وعندما عمل في وظائف الوكالة، التقى على مدار الساعة بقصص إنسانية ومواقف، وحوادث وحكايات، حفرت على صفحة ذكرياته، ما لا يستطيع أن ينساه ونمت شخصيته، وعمقت وجدانه وإحساسه، وجعلته يتربى على كراهية الظلم، والتصدي للظالمين من كل موقع، يجد فيه نفسه قادرا، على أن يكون فاعلا.

الأب الروحي لفتح

لم يطلق هذا اللقب على "أبو حافظ" جزافا، فرغم مركزه الحساس ومسماه الوظيفي الرفيع في الوكالة، كان حسه النضالي عاليا دائما، وبحكم سيطرته على مقاليد الأمور في المخيم الذي يضم أكثر من اثني عشر ألفا، كان قادرا دائما على أن يوجه الشباب، ويقود الحركة الوطنية بالحكمة والمثابرة والشجاعة بادئا بنفسه، فقد اعتقل أكثر من ست مرات وأمضى في سجون المعتقل فترات طويلة، كما أن ستة من أبنائه وأحفاده قد اعتقلوا بتهم خطيرة.

وكانت ابنته "كفاح" إحدى فتيات الحركة النضالية، حيث اعتقلت في سجن الرملة، كما تعرض بيته للهدم وكذلك بيت ابنه حافظ.

ويقدم مفتاح العودة للقائد

في عام 1996 اتفقت لجان المخيمات في وسط وشمال وجنوب الضفة، أن تقدم مفتاح العودة إلى الرئيس القائد أبو عمار في المقاطعة برام الله ووضع المفتاح على طبق، وأقيمت منصة، واتفق الجميع على أن يقدم المفتاح إلى أبو عمار أحمد الصافي وذلك، احتراما لسنه وتاريخه، ولمعرفة كل الأعضاء بتاريخه وشجاعته ونضاله.

ويستذكر أحمد الصافي هذه اللحظات بنوع من الفخر والاعتزاز ويشعر بأن هذا العمل الرمزي له دلالة عميقة، فكان الأجيال التي شهدت النكبة واكتوت بنيرانها تُحَمِّل الزعيم القائد أمانة استرداد بيوتهم، وعدم التفريط في أرضهم وتاريخهم قيد أنملة.

كانت الجماهير على وعي كامل، بأهمية ما تقوم به، وكان القائد على مستوى الأمانة والمسئولية، ولعله، كما يقول كبار المحللين والمؤرخين، قد دفع حياته ثمنا لمحافظته على حق العودة ورفضه التفريط في هذا الحق، في مباحثات اتفاقات كامب ديفيد الثانية في واشنطن عندما قال للرئيس كلينتون: أنا أقول لكم "لا" وأدعوكم لحضور جنازتي.

قواعد الانطلاق من مخيمات الشتات

تقع بيت نبالا على سفح تل في نهاية المنحدرات الغربية لجبال القدس، وينبسط أمامها السهل الساحلي الممتد إلى البحر، ويبعد عنها مطار اللد إلى الغرب وعلى خط مستقيم حوالي خمسة كيلومترات. وينحصر موقع القرية بين "وادي الشامي" شمالا الذي تنحدر إليه مياه الأمطار في فصل الشتاء عند خط مستقيم قرب سنجل مارا بأودية وشعاب كثيرة في اتجاه الغرب.

وتبلغ مساحة أراضي بيت نبالا حوالي 15000 دونما، موزعة بين السهل والجبل، وتصل أراضيها إلى مشارف مدينة اللد في الجنوب الغربي، والحديثة جنوبا، وإلى مداخل قرى بدرس وقبيا وشقبا شرقا، وقريتي دير طريف والطيرة شمالا، كما تحاذي أراضيها أراضي قرية رنتيس إلى الشمال الشرقي.

وتتكون بيت نبالا التي ينتمي إليها المناضل أحمد الصافي من عشائر صافي وعشيرة زيد ونخلة والشراكة . وكانت بيت نبالا بلدة مسورة، أي أن أهلها القدماء عاشوا داخل أسوارها، وظلت آثار بوابات ذلك السور قائمة حتى تدميرها بعد العام 1948. ودمرت القرية بكاملها بعد الاحتلال الإسرائيلي، فسووها بالأرض.

وشارك أهالي بيت نبالا في الحركات الوطنية والثورات ضد اليهود والإنجليز، خاصة ثورة 36-39، وكانت بيت نبالا معقلا للثوار، حيث هيأت جبالها وشعابها مخبأ طبيعيا لهم، ومركزا من مراكز تموينهم بمشاركة العديد من شباب القرية. أما في ثورة 47-48 فقد كانت مركزا لقيادة المنطقة الوسطى من فلسطين.

ففي نيسان من عام 1948 كمن عدد من شباب القرية لقافلة يهودية مرت تحت حراسة الجيش البريطاني تريد الوصول إلى مستعمرة "بن شيمن" المحاصرة، واشتبكوا مع القافلة، ما أدى إلى تدخل الجنود الإنجليز لحمايتها ومطاردة أفراد الكمين بمجنزراتهم، فاستشهد عدد من أبناء القرية وجرح آخرون. كما شارك شباب القرية في معظم النجدات التي كانت تذهب للقتال من العباسية إلى سلمة غربا، ومن رأس العين شمالا إلى نواحي اللد والرملة جنوبا.

أما مخيم الجلزون للاجئين الفلسطينيين فتأسس عام 1949 فوق مساحة من الأرض تبلغ ربع كيلو متر مربع على تلة صخرية تبعد مسافة 7 كيلومترات شمال رام الله. ويتكون سكان المخيم من 36 قرية تابعة

لمناطق مختلفة من فلسطين. وقامت الأونروا باستئجار قطعة الأرض هذه من الحكومة الأردنية. وأصبح المخيم تحت السيطرة الإسرائيلية- الفلسطينية المشتركة حسب اتفاقات أوسلو.

سمي المخيم بهذا الاسم نسبة إلي عين الجلزون الكبيرة المشهورة والتي لا زالت آثارها حية وموجودة لغاية الآن.

ملفات النضال الوطني

يقول الحاج أحمد: بدأت مرحلة النضال ضد العدو مع إطلالة عام 1948 التي شهدت أحداث النكبة الفلسطينية، كنت قد انتظمت في حزب البعث العربي وأنا في أوائل عهد الشباب، وكان عمري لا يتجاوز سبعة عشر عاما.

وكنا نقوم بنشاطات شبابية، رياضية وكشفية وثقافية، ورحلات وحفلات ترفيهية، فلما اندلعت أحداث النكبة وتم تشريد آلاف من العائلات، وهبت وكالة الغوث للمساعدة، كنا نَهُبُ بنصب الخيام وتثبيتها، فإذا جاءت الزوابع والرياح العاصفة والأمطار لاقتلاعها كنا نقوم لمساعدة الناس ونرتب أمورها، وتواصل هذا النشاط في عامي 48 - 49.

الانضمام إلى حركة فتح

وعندما استقرت أسرتي في مخيم دير عمار كنت من العناصر الفاعلة في نشاطات الشباب في النادي، كنا نلعب كرة القدم وكنت بارزا في الفريق كمهاجم، وفي هذه الفترة التقيت بالمناضل "عثمان عرابي" وهو شخصية قيادية وطنية، سرعان ما ربطتنا أواصر صداقة، وتلاقت وجهات نظرنا السياسية، خاصة وأننا كنا نعمل ونقيم كلانا في مخيم الجلزون.

وفي هذه الفترة، التقينا بمصطفى عيسى "أبو فراس" أول محافظ لمحافظة رام الله بعد عودة السلطة، وكان من السهل على أبو فراس أن يتعرف على توجهاتنا القومية والوطنية، حيث كانت الحركات الوطنية نشطة، وكلها تنتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، ونتصدى لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

وعندما قابلت الرئيس

وعندما قدمني مصطفى عيسى إلى القائد ياسر عرفات قال لي أبو عمار يومها:

- ماذا أنت يا أحمد؟

قلت له:

- أنا بعثي.

فقال لي على الفور:

- أنت فتح.

ومنذ تلك اللحظة تعرفت على مبادئ وفلسفة وهوية فتح، وما شدني إليها فعلا، أنني لمست فيها جدية الكفاح المسلح، ونقاء وشفافية مبادئها الأخلاقية حيث لا ينضم إلى صفوفها من يشرب الخمر، ومن تشوب أخلاقه شائبة، فالعضو يجب أن يكون مستقيما خلوقا جادا ملتزما قادرا على أن يتحمل المسئولية، يتفجر حماسة ووطنية للنضال من أجل فلسطين ومحاربة هؤلاء الذين شردوا أهله واغتصبوا أرضه.

في المعتقل يزداد المناضل بريقاً

عندما كنا في الحركة الوطنية، كنا نعرف أننا نعرض أنفسنا للموت والاعتقال، وكان هذا الإحساس يغذي مشاعرنا بالإصرار والعزم فالكفاح الحقيقي، لا يعرف الخوف، ولا يؤمن بمقولة: "ابعد عن الشر وغنّ له"، المقاتل الحقيقي يؤمن بما يقوله عبد الرحيم محمود:

"سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى

فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا"

وكنا على ثقة من أن الاعتقال أمر وارد، وأن مواجهة العدو في ظلام السجون، لن تثنينا عن مواصلة المشوار، وهكذا تم اعتقالي ست مرات.

وكان الاعتقال الأول، مثل الحب الأول، لا تستطيع أن تنساه بسهولة:

كان ذلك في 1970/1/3.

جاؤوا في ظلام الليل، بالسيارات العسكرية، وبقوات كبيرة، كعادتهم، وانتشروا في أنحاء المخيم، ثم اعتقلوني، ضمن خلية مكوّنة من خمسة عشر فردا وهي أول خلية لفتح في مخيم الجلزون.

وتعرضت للتعذيب والضرب وعرفت ألوانا من البشر نُزعت الرحمة من قلوبهم، وجاء انتماؤهم للإنسانية محض خطأ كبير.

ولكني كما قلت كنت أدرك، أن معدن المقاتل الحقيقي، كالذهب، كلما تعرض للنار، ازداد بريقا ولمعانا.

حكم عليّ يومها بسنتين، دون أن أتفوه بأي كلمة اعتراف.

وفي حرب عام 1973، تم تحديد إقامتي، وفرضت عليّ الإقامة الجبرية، وكان عليّ أن أذهب يوميا إلى مركز الشرطة في رام الله لأثبت وجودي.

لقاء الأب والابن في جنيد

في عام 1988 تم اعتقالي ونقلي إلى سجن النقب الصحراوي الرهيب، وكان ذلك في فترة اشتعال الانتفاضة الأولى، وأذكر أنه قبل انتقالي إلى معتقل النقب التقيت في سجن جنيد مع ولدي "موسى" وكان لقاءً عاطفيا مثيرا، احتضنت ابني وأنا فخور به، وقرأت في عينيه مشاعر العطف والحب والإكبار، ولمحت في بريق عينيه آثار دموع، صانتها كبرياء الرجال. يقول أبو حافظ: أمضيت في سجن النقب تسعة شهور، ستة شهور حبس إداري، ثم مددت إلى ثلاثة شهور أخرى، وكان الهدف إبعادي عن حركات الشباب الوطنية وحرمانهم من القيادة والخبرة والتوجيه والحشد.

واستشهد ولدي حسين

ومن ذكريات النضال المحفورة على صفحة قلبي، ولا أحالني قادرا على أن أنساها، استشهاد ولدي "حسين جمال" في بداية الثمانينيات.

كان طالبا في المدرسة الهاشمية الثانوية برام الله، وكان ذلك عام 1979. وأثناء اعتقاله تعرض للتعذيب الشديد، فأصيب في العمود الفقري، وأُجريت له عملية كللت بالنجاح، ولكنهم اعتقلوه مرة ثانية ونتيجة الضرب الشديد المبرح، استشهد في آذار عام 1983.

ستة معتقلين فقط

بعد أن تم الإفراج عني من سجن النقب، كان هناك ستة من أفراد عائلتي، أثناء وجودي في معتقل النقب وهم على النحو التالي:

- الحاج أحمد صافي
- وابنه موسى
- وابنه علي
- وابنته كفاح
- وأولاد ابنه حافظ "محمد" و"إبراهيم"

وبعد أن تم الإفراج عن الحاج، تم هدم البيت، فقد فرض نظام منع التجول على المخيم، وقال الضابط العسكري الإسرائيلي للحاج: - سنهدم الدار.

فقلت له في لهجة تحدٍّ: سيبنيها أبو عمار.

فقال الضابط: ماذا؟ هل تريد أن ترجع إلى النقب؟

فقال: نحن لا نرهب سجونكم.

ولفت نظرنا الأخ موسى، أن من بين أولاد الحاج فتاة مناضلة اسمها كفاح، وأنها كانت ضمن إحدى الخلايا العسكرية، وهي الآن متزوجة وتقيم في دير عمار، إضافة إلى إصابة ابنتي الصغرى (نهاية) فقط أصيبت إصابة خطيرة في الانتفاضة الأولى إلا أن الله شفاها وتعافت.

مخيم الجلزون بالأرقام

أمضى أحمد صافي معظم حياته مديرا لمخيم الجلزون، وهي وظيفة هامة في وكالة الغوث، ومن هنا ارتبطت حياته بهذا المخيم الذي سجل في صفحات النضال تاريخا مشرفا فقد:

- فُرِضَ منع التجوال على المخيم 80 مرة، وكانت كل فترة تتراوح بين عشرة أيام إلى أربعين يوما. ويوم استشهاد أبو جهاد استمر منع التجول أربعة وأربعين يوما.
- سقط على أرض الجلزون ستة عشر شهيدا.
- تم نسف أربعة عشر بيتا.
- تم اعتقال مئات الشباب، والتنظيمات والخلايا العسكرية من أبناء المخيم.

وطن يسكننا

من المقولات التي تتردد على ألسنة أهل الجلزون: إن لكل شعب وطنا يسكن فيه، أما نحن الفلسطينيين فلنا وطن يسكن فينا.

من هذا المنطلق اتفق الحاج أحمد مع شركة باصات المصري على أن تنظم رحلة لأهالي المخيم، ليتوجهوا إلى زيارة قراهم التي هاجروا منها في عام 1948، واستطاعت شركة المصري أن تستخرج التصاريح اللازمة وشد أهل الجلزون رحالهم إلى الأرض العزيزة التي غادروها منذ أكثر من ثلاثين سنة.

يقول الحاج أحمد: عندما وطأت أقدامي أرض بيت نبالا جثونا جميعا على أرضها الطاهرة وأخذنا نُقبلها ونروي ثراها بالدموع، وتصاعد البكاء، وتحول إلى نشيج، وإلى هستيريا باكية، وأخذ بعضنا يحفن من تراب الأرض السليبة، ويهيل على رأسه وهو يبكي. كانت لحظات التقائنا بالأرض التي فقدناها "في حادث سير" على حد تعبير محمود درويش، تبعث فينا ذكريات الصبا والطفولة، ففي كل ذرة رمل، بقايا موال وعبير زهرة، وزقزقة عصفور، وبقايا أريج من عرق سكبه آباؤنا وأجدادنا.

توجهنا إلى المدرسة، هنا كان ملعب صباي، ونشيد أحلامي وموطن ذكرياتي، هنا تعلمنا الحروف الأبجدية، واتقنا كتاب الحب للوطن والأرض والتاريخ. هنا التقى الرفاق والزملاء، وتحت ظلال هذه الأشجار كان لنا أحداث وشجون وأفراح.

هنا يرقد أبي وجدي، وهنا كانت ملاعب الصبا، ومسارح البهجة، والفرح، ومواسم العز والكرامة، هنا كان لنا وطن.

أخذوه، سلبوه، عنوة، وبقوة، وحماقة وغطرسة.

فأين من يرضى بذلك..؟

وأين من يقربه..؟

وأين من يسكت عنه..؟

وبعد زيارتنا لبيت نبالا توجهنا إلى العباسية ومن ثمّ إلى رنتيس، وكفر عانا، وعدنا بعد أن أخذنا من أرض كل قرية حفنة من تراب.

حوار مع أبناء العم!

وفي أثناء هذه الرحلة توجه مع زملائه إلى أحد البيوت، وهناك رحب بهم أحد الصهاينة قائلا:

- أهلا بأولاد العم.

فرد عليه أحمد الصافي قائلا:

- ليت أبونا إبراهيم يقوم من قبره ولو لساعة واحدة حتى يرى العدالة بين أبنائه.

وأضاف أبو حافظ مخاطبا الرجل الصهيوني قائلا:

- هل أبونا إبراهيم الخليل قال لك اطرد ابن عمك، واسكن محله.. ألا ترى أولاد عمك وقد تشتتوا في الآفاق وتشردوا وسكنوا في الكهوف وتحت الشجر والخيام.

ذاك الشبل من ذاك الأسد

ومما يرويه الأخ موسى عن ذكرياته مع والده أن الوالد كان يقول: إن القدس مقدسة بالنسبة لملايين البشر من العالم الإسلامي والعالم المسيحي.. أما أنا (يقول أبو الحافظ) فإني قدسي هي بيت نبالا.

وحول الانتفاضة الأولى يقول: كان والدي يقوم بحكم وظيفته بإيجاد المواد الغذائية اللازمة للسكان خاصة في أيام منع التجوال وكان يعمل كل ما في جهده لتقديم المساعدة اللازمة لأهالي المعتقلين ويحاول بكل الطرق إيجاد الاستمرارية النضالية لهؤلاء الشبان المناضلين.

ويؤكد الأخ موسى على الدور الفاعل الذي كان يقوم به د. محمد الوحيدي حيث كان التنسيق متكاملا بينه وبين الوالد، وكان د. الوحيدي عنصرا فاعلا في تحركات ونشاطات والدي بل كان يتصدى للاحتلال ويحاول أن يبعد الأذى والاعتقال أو التوقيف عن والدي مؤكدا للجهات الرسمية أن والدي يقوم بوظيفته الإنسانية بعيدا عن أي مضامين أخرى قد تؤدي إلى اعتقاله. وكثيرا ما نجح د. الوحيدي في تفعيل دور والدي وشكل الاثنان فريقا متكاملا لمد يد العون للعائلات والأهالي من جهة ولتفعيل وتنسيق دور المناضلين، وكان ذلك يحتاج إلى الخبرة والذكاء والإخلاص الذي يتمتع به د. الوحيدي ووالدي بكل تواضع.

وخلق هذا التناسق والتكامل بين الرجلين أداءً فريدا متميزا حتى كان يقال إن هذا المكتب ليس تابعا للوكالة وإنما هو مكتب لفتح.

يوم استشهد البطل

ومن ذكريات الأخ موسى انه في 1983/3/21 استشهد أخي جمال وكان المخيم حينها يخضع لنظام منع التجوال وتم التنسيق مع وكالة الغوث لإدخال الجثمان، وطلبت قوات الاحتلال أن تقتصر الجنازة على العائلة فقط ولكن ما كادت الجنازة تتحرك حتى خرج جميع سكان المخيم عن بكرة أبيهم متحدين الاحتلال ومنع التجول لتشييع الجثمان.

وخلال فترة العزاء تم اقتحام المنزل، كما أن المخيم ظل يخضع لنظام منع التجوال وفي هذه الفترة تم اعتقال أحمد صافي (الوالد) واثنين من أولاده بعد تفتيش البيت بحجة أن احمد صافي يقوم بتزويد المخيم بالمؤن أثناء منع التجوال.

ومن ذكرياتي عن الوالد أنه ساهم في تشكيل ودعم حركة الشبيبة ولجان العمل الاجتماعي التابعة لحركة فتح ودعم الحركات الاجتماعية النضالية للفصائل المختلفة وتكريس مفاهيم العمل التطوعي والجماعي والنقابي لخدمة أهالي المخيم والتأكيد على الوحدة الوطنية بصورة متواصلة وبفاعلية كبيرة.

كما تصدى الوالد بصورة مؤكدة للجان المخيمات التي كانت سلطات الاحتلال تعمل على تأسيسها بالتوازي مع روابط القرى ولكن الوالد والجماهير المؤيدة له والملتفة حوله استطاعت أن تفشل هذه المحاولة بل إن الشباب هاجموا هذه اللجان عندما كانت تعقد أحد اجتماعاتها ونجحوا في إفشال الاجتماع والقضاء عليه.

تذكرنا، ونذكر الأجيال القادمة: إن لنا وطنا غاليا سرقوه، ولا بد أن نعيده مستذكرين ما قاله عبد الناصر يوما: إن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة.

(2012/11/2)